مَشاهد من بريدة

قبل خمس وسبعين سنة
ذكريات كتبت في عام ١٤٢٥هـ

بقلم: محمد بن ناصر العبودي

دار الثلوثية

ح محمد ناصر العبودي ، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد بن ناصر

مشاهير من بريدة قبل خمس وسبعين سنة ذكريات كتبت في عام ١٤٢٥هـ

. / محمد بن ناصر العبودي . — الرياض ، ١٤٣٠هـ

١٦٨ ص ، ١٧×٢٤سم .

ردمك : ٥-٢٠٠٦-٠٠ - ٦٠٣-٩٧٨

١- القصيم (السعودية) — تراجم ٢- بريدة (السعودية) — تاريخ

٣- بريدة (السعودية) — وصف ورحلات أ- العنوان

ديوي : ٩٢٠,٠٥٣١١٩ ١٤٣٠/٨٩٧

رقم الإيداع : ١٤٣٠/٨٩٧

ردمك : ٥-٢٠٠٦- ٠٠ - ٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

دار الثلوثية للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية — الرياض

تليفون : ٤٦٤٢٩٩٩

فاكس : ٤٦٤٥٩٩٩

email :tholothia@gmail.com

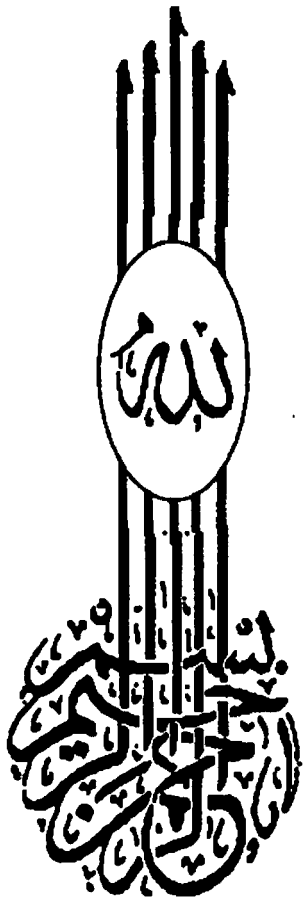
بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

فإن الراصد لمسيرة العلامة الموسوعي معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي يدرك كثرة العلوم وتزاحمها في دائرة اهتمامه حباً ومطالعة ومدارسة وتدويناً وتأليفاً.

وها هي دار الثلوثية في باكورة إصداراتها تزف هذه الباقة الجديدة من روائع ما كتبه معاليه في علم الأخباريات المتضمن العديد من القصص والأحداث لشخصيات متميزة تناقل الناس أخبارهم وتلقوا طرائفهم ومواقفهم، وظلت حياتهم موقوفة على تداول الشفاه واختلاف الروايات، فنهض معاليه إلى هذه المهمة كما نهض إلى غيرها من الأبواب التأليفية التي طرقها.

وعلم الأخباريات علم كاد أن يندرس في سجل علوم الأمة الإسلامية، ونرى أن العلاّمة العبودي قد ساهم في إحيائه وبث روح الفتوة فيه منذ كتابة الأول أخبار أبي العيناء، ثم في منهجه التأليفي المستمر في هذا السياق.

وإذا كان التأليف في الأخبار من طرائف المناهج التأليفية عند معالي الشيخ، فإنه معروف ببصيرته النافذة في مجال التأليف الجغرافي الثقافي إذ كتب مؤلفه الضخم القيم: المعجم الجغرافي لبلاد القصيم، وأثرى المكتبة بأعماله المتعددة في الرحلات التي جعلت منه عميداً للرحالين تطوافاً وتدويناً

بلا منازع، ولم تعرف الإنسانية لأحد مثل هذه المؤلفات من الرحلات التي تجاوزت حتى كتابه هذه الأسطر ١٢٠كتاباً.

كما أن الشيخ العبودي حفظه الله بهذه الإصدارات الأخبارية يقف فيها شاهداً على العصر حيث سمع أخبارها ونقل عن رواتها مشافهة وتلقى وقائعها من أصحابها وأبنائهم وأحفادهم، ونشأ في البيئة التي احتضنت وقائعهم ودقق في مسيرتهم، وبذلك مارس معاليه رصداً ثقافياً لمرحلة تاريخية مهمة حوت أنساقاً متعددة في الشريعة والاجتماع والأدب والتاريخ .

وإنني أدرك بأني لن أستطيع تقديم دراسة مفصلة عن هذه الكتب وما احتوته من تفاصيل مجتمعية دقيقة في مثل هذه المقدمة الافتتاحية، إلا أنني أستطيع الجزم بأنها تعد فتحاً في التأليف المنهجي في مثل هذا الفن، فهي رصد توثيقي هام استطاع المؤلف أن يقدمه بأسلوبه السهل الشائق بعيداً عن التكلف والعنت.

كما حلاّها بتلك الوثائق الهامة التي تمثل إضافة مهمة في أهمية الوثائق والعناية بها ودراستها وأن بالإمكان استخراج معلومات هامة وإضافات علمية دقيقة تخلص منها ، لاسيما وهي تنبع من يد عالم متخصص حباه الله بالوعي والبصيرة والتمحيص، بالإضافة إلى الخبرة والدربة المبكرة في العناية بهذا الشأن

كما أن الشيخ بقدرته التاريخية ومعرفته الدقيقة بالأسر والأعيان والأعلام والرجال استطاع أن يبرز ما في هذه الوثائق من تراجم لمن وردت أسماءهم ويشرح ويسترسل في تفاصيل تلك الوثائق والأوراق بكل دقة وإمتاع.

وهذه الكتب التي تسعد دار الثلوثية بتقديمها إلى القراء لتكون باكورة إصداراتها هي:

١-مشاهد من بريدة قبل ٧٥ سنة .

وهو كتاب توثيقي هام يحكي تصويراً دقيقاً لمدينة بريدة قبل تلك القفزة العمرانية الهائلة التي تشهدها تبعاً للتغيرات والتحولات التي لحقت بها .

هذا وإن غالب وصفه لتلك البيوتات إنما هو لداره وجيرانه ومسجد حارته أو ما يعرف عند العامة " شمالي بريدة" ، إلا أن الشيخ قام بوصف دقيق لتلك البيوتات آنذاك والحالة الاجتماعية للناس وحكى طرائفهم ونكتهم التي يتداولونها في سرد حكواتي جميل، وهو منهج أحسبه يعد تأليفياً مبتكراً عندما اعتمد أسلوب حياته وطريقه في السير في طرق بريدة سبيلاً للتأريخ لأحداثها ورجالها ومعالمها مما قد لايتسنى إدراجه في كتاب آخر، وإنني أتمنى أن يسنَّ معاليه بذلك سنة تأليفية حميدة لكبار العلم والسن والقدر في بلادنا وفي البلاد العربية والإسلامية ليقصّوا لنا حكايا مدنهم وقراهم ليتكون بذلك إرث تاريخي وثقافي واجتماعي مهم.

٢-أخبار الملا ابن سيف :-

وهو الكاتب الموثق المعروف عبدالمحسن بن محمد السيف المولود في بريدة سنة ١٢١٥هـ والمتوفى بها سنة ١٢٩٤هـ والذي كان أحد الكتبة المعروفين إضافة إلى أنه قد قام بتدوين تاريخ أسرته التي عرفت بالكتابة والتوثيق والتعليم مدة تجاوزت مائة عام.

٣- أخبار قني :-

عبدالكريم بن عثمان آل عبيد المولود في بريدة سنة ١٢٧١هـ والمتوفى سنة ١٣٥٩هـ وهو أحد القافة الدهاة الأذكياء المعروفين استطاع بما وهبه الله من فراسة ومعرفة أن يسجل نفسه أحد أبرز الشخصيات للقرن الماضي حتى عدت قصصه ومواقفه أشبه بالأساطير.

فقام العلاّمة محمد العبودي بجمعها وتدوينها وصياغتها والتثبت منها وصدر الكتاب بعدد من الوثائق الهامة لأسرته وشخصه جعلت من الكتاب مصدراً تاريخياً واجتماعياً هاماً.

٤-أخبار مطوع السيب.

الشيخ عبدالكريم بن عودة المحيميد ١٢٧٠هـ- ١٣٤٦ هـ وهو كذلك شخصية اجتماعية بارزة والذي كان له طرائف وقصص ونكت متداولة تنبئ عن سرعة البديهة وحسن التصرف وجمال المنطق ولطفه وظرافته.

فقام العلامة العبودي بتوثيق حكاياه، وأفرد لمطوع السيب وأسرته المعروفة ترجمة مفصلة أبان فيها "حفظه الله" أحد قدراته العلمية في التراجم وأخبار الأسر والأنساب.

وختاماً يشرفني أن نقدم هذه الإصدارات المتميزة في إضافة مهمة لعلوم العبودي وفنونه التي أبدع فيها وأتقن وتنوع حتى عدّ علماً بذاته يلحق بكبار مؤلفي الأمة من المتقدمين، وذلك من حيث الكثرة والتنوع والجدة والتميز، وتبقى جهود معاليه العلمية معروضة أمام الباحثين والدارسين للدراسة والبحث وإبداء وجهات النظر، وستكون دار الثلوثية سعيدة إن نجحت في إثارة جزء من هذا الحراك العلمي؛ بل إنها تثق بذلك.

أدعو الله أن يحفظ شيخنا، وأن يمده بقوة من عنده ليكمل مشاريعه العلمية الكبرى التي ينتظرها محبُّوه والعارفون بفضله وقدراته.

كتبه
محمد بن عبدالله المشوح
١٤٢٩/١٠/١٠هـ

يوم الخميس: ١٤٢٣/١/٢٨هـ:

من الرياض إلى بريدة:

رغم كون مدينة بريدة هي مسقط رأسي ولي فيها ممتلكات، ومن ذلك بيتي الذي فيه أكثر من ١٢٠ نخلة مثمرة فيها عامل مقيم، ووجود بستانين آخرين فيهما نخل أيضاً، وفيهما عامل أيضاً، ولي فيها عقار فإنني قَلَّ ما أذهب إليها بسبب مشاغلي في العمل، وأسفاري إلى الخارج.

سافرت فجر هذا اليوم معي ابني المهندس ناصر يقود السيارة وأم ناصر زوجتي وخادمة لها سيرالنكية، وليست بالخادمة الوحيدة عندها، ، وكان سفري إلى بريدة الذي أنوي أن أعود منه يوم غدٍ الجمعة ليلاً من أجل الإطلاع على آخر ما وصل إليه العمل في بيتي الذي أبنيه وأوقفته لله تعالى على ذرية والدي ناصر بن عبدالرحمن العبودي لأنه بيته الذي ورثه عن والده.

وكنت وكلت الأخ محمد بن إبراهيم الجاسر من أهل بريدة على عمارته وملاحظة ذلك.

وقصدي من رؤيته اليوم أن أطلع عليه وأعين المكان الذي رأيت أن أضع فيه لوحة تذكارية تاريخية لهذا البيت هي الأولى من نوعها في مدينة بريدة حسبما عرفته وأكده لي الذين يعرفون أنحاء بريدة ونص اللوحة:

(اشترى عبدالرحمن بن عبدالكريم العبودي أرض هذا البيت في عام ١٣٠٧هـ وحوشه وحفر فيه بئراً في العام نفسه، ثم عمره بيتاً أنهى عمارته وسكنه في عام ١٣١٣هـ، وبقي ملكاً له حتى توفي في عام ١٣٢٣هـ فاشتراه من ورثته ابنه ناصر ابن عبدالرحمن العبودي، وبقي معه حتى توفي فيه عام ١٣٧٠هـ، فاشتراه ابنه محمد بن ناصر العبودي، وسكنه فترة ثم هدمه وبناه بالأسمنت المسلح، وقد خطط مبناه وأشرف على تنفيذه ابنه المهندس

المعماري (ناصر بن محمد العبودي) وتم بناؤه في عام ١٤٢٣هـ، أي بعد مائة عام من وفاة مؤسسه وبانيه الأول).

لقد كنت لاحظت منذ القديم أنه لا توجد على الأماكن والأبنية المهمة في بريدة لوحات تبين أمرها أو تؤرخ لها أو حتى تذكر من كان ملكها، ومنها بيوت الأمراء والقضاة والشعراء، والزعماء المحليين، حتى المساجد يوجد في بعضها تاريخ بنائه، وتجديد بنائه ولكن لا يذكر من قام على عمارته ولا (الستاد) وهم معلم البناء الذي تولى بناءه.

وبعض المساجد يذكر فيه تاريخ انتهاء ترميمه فقط من دون أن يذكر بناؤه الأول وبعضها ليس عليه تاريخ أصلاً.

ولذلك يبحث المرء عن بيت حجيلان بن حمد أمير بريدة المشهور وعن بيت الشيخ محمد بن عبدالله آل سليم الشخصية العلمية القضائية القوية، وعن بيت الشاعر العامي المفلق (محمد بن عبدالله العوني) وغيرهم، فلا يجد لذلك ذكراً.

أما بيت محمد بن عبدالرحمن الربدي أغنى أغنياء بريدة في وقته فإنه قد دخل في توسعة المسجد الجامع، ولكن لا أحد يذكر ذلك ولا مساحته ولا المكان، بل حتى الجهة التي دخل منها في توسعة المسجد.

وقد عزمت على أن أضع لافتة صغيرة على ما تبقى من بيت جد والدي واسمه (عبدالكريم بن عبدالله بن عبود) ويقع إلى الشمال من جامع بريدة القديمة، فقد أخذ منه نحو ثلثيه توسعة للميدان الذي يقع إلى الشمال من المسجد الجامع، وبقيت منه أرض بني عليها الناظر عليه شقيقي عبدالكريم بن ناصر العبودي سبعة دكاكين جيدة كبيرة فقد كتبت عليه لافتة صغيرة تبين حال تلك الدكاكين وهي عبارة (وقف عبدالكريم

بن عبدالله العبودي) وزدت الياء في اسمه لأن هذا هو الذي أصبحت أسرته وهي أسرتنا تعرف به.

كذلك كان لعمة والدي (منيرة بنت عبدالكريم العبود) دكان وقف يقع في شمال المسجد الجامع- أيضاً- فدخل في الجامع وأعطتنا الحكومة ٤٩٧ ألف ريال تعويضاً عنه، و أنا الناظر عليه، وكنت طلبت من شقيقي القاضي السابق الشيخ سليمان بن ناصر العبودي ملاحظته أثناء غيابي، وقد اجتمع عندنا وفر من دخله بعد أن نفذنا وصية صاحبته، فاشتريت بالجميع (عمارة) مؤلفة من ثلاثة دكاكين صغيرة وثلاث شقق سكنية وهي من الأسمنت المسلح بـ(٥٥٠) ألف ريال، وكتبت عليه لوحة صغيرة، (وقف منيرة بنت عبدالكريم العبودي).

وإنني أرجو أن يحذو الآخرون حذوي في هذا الأمر لما ذكرته.

ومن الطرائف في أمر هذا الدكان الذي أصبح عمارة مؤلفة من ثلاثة دكاكين تقع على شارع الصناعة المهم في بريدة، كل واحد منها مساحته أكبر من مساحة ذلك الدكان، وثلاث شقق سكنية كلها من الأسمنت المسلح، لم تملكه واقفته فتوقفه كما هو المتبادر إلى الذهن، وإنما أوصت في حياتها أنها إذا توفيت يباع صوغها (الهامة والمنثور) وهو الذهب الذي كانت تتحلى به، وظاهر أنه ليس كل ما عندها من الذهب للحلية، وليس كل ما عندها من مال: وأن ترسل حجة لها وأخرى لأمها، ويعطى أخوها عبدالرحمن من تركتها وهو جدي عبدالرحمن العبودي ثمانية ريالات وأن يشتري من بقية ذلك دكاناً، اسمته (مخزن) لأن الناس في القديم وفي القريب الذي أدركته يسمون الدكان (المخزن) مع أنه يفتح صباحاً ومساءً، وطالما سمعت والدي رحمه الله في صغري يقول: وين مفتاح المخزن؟

أو يقول لأهله: أبي أروح لمخزني، أي دكاني.

وقد وكلت منيرة المذكورة على ذلك عبدالمحسن بن محمد بن سيف وهو ثري مشهور وشخصية متميزة - ويعرف بالملاّ، لحسن خطه وضبطه، وهو خالها لأن أمها هي طرفة بنت محمد بن سيف، وقد اشترى عبدالمحسن ابن سيف هذا الدكان لها تنفيذاً لوصيتها باثني عشر ريالاً فقط، ووثيقة ذلك موجودة لدينا وقد سجلناها في محكمة بريدة، وكان شراؤه للدكان المذكور عام ١٢٨٢هـ.

ما زال ذلك الدكان أو المخزن يريع أي يكون له أجرة منذ أن اشترته تتفاوت حتى كانت آخر سنة أجر فيها قبل هدمه، أن أجره أخي سليمان لفلان بن ربيش من أسرة الرئيس المعروفة بخمسة عشر ألف ريال، وقال لي أحد العارفين بالأمورإنه يساوي أكثر من ذلك، ولكن سليمان لم يرد أن يزيد الأجرة على ابن ربيش.

ثم آل إليه الأمر أن صارت أجرته في السنة في عمارته الجديدة ٤٨ ألف ريال!

صحيح أن القيمة الشرائية للريال قد اختلفت ولكننا لو حولناه إلى فضة خالصة لرأينا أن دخله تضاعف بعد تلك المدة الطويلة التي بلغت مائة وأربعين سنة، إضافة إلى الأجور المتكررة لتلك السنوات الطويلة.

ومبان في بيتي:

وبني وكيلنا الأخ محمد بن إبراهيم الجاسر مباني في بيتي الذي يقع في بستان من النخل في محلة العكبرشة توسعة بإيجاد مبانٍ جديدة، وكنت بنيته قبل أكثر من عشرين سنة، ولكنه صار بعد هذه المدة ضيقاً علينا.

فنحن نسافر إلى بريدة للإطلاع على سير البناء لأن ابني ناصر يشرف عليه، وهناك إلى ذلك الحنين لمسقط الرأس.

لو نطق البيت:

وصلنا إلى بريدة بعد ٣ ساعات ونصف من السير لم نتوقف فيها مطلقاً ولا لحظة واحدة، وذلك في التاسعة إلاّ الربع، وأسترحنا قليلاً ثم ذهبت مع ابني ناصر إلى بيتنا الذي ذكرت قصته.

وقد عجبت من حسن تفصيله وتخطيطه وجعله صالحاً لسكنى عدة أسر من الأسر المحتاجة، ومما يجدر ذكره أنني وقد أوقفته على المحتاج من ذرية والدي لا أعلم أي فرد منهم الآن محتاجاً للسكنى فيه لا من امرأة ولا رجل ولله الحمد، ولكن لا ندري ما تأتي به الأقدار.

وقد صممت على تأجيره والاحتفاظ بالريع من الأجرة يكون المقدم فيه ما يحتاجه من ترميم أو نحوه والباقي يوزع على الفقراء من ذرية والدي.

وبناؤه على أحدث طراز معماري يبنى عليه مثله حتى أعجبت وأعجب به شقيقي عبدالكريم الذي كان مثلي قد ولد فيه وقضى طفولته داخله، ولكننا لم ننس ماضيه وماضينا فيه عندما كان بيتاً طينياً أرضه غير مبلطة، وسقفه مكشوفة خشبها من الداخل، ولكن هذا لم ينسني أنا والدي الذي كان سكن فيه وسكن فيه والده من قبله، وأنا لا أعرف جدي إلاّ إذا ذَكرَّني به مُذَكِّر، لأنه توفي في عام ١٣٢٣هـ وولدت أنا في عام ١٣٤٥هـ أي بعد وفاته باثنتين وعشرين سنة.

أما والدي فإنه كان كل الدنيا بالنسبة إليَّ في زمن الطفولة وحتى في زمن الشباب لأنه دمث الخلق، محبوب من الجميع، وكان صديقاً أكثر منه والداً قاسياً كما يكون عليه بعض الآباء.

ولذلك كانت وفاته في عام ١٣٧٠هـ فاجعة عليَّ مع أنني كنت في الخامسة والعشرين وأشغل وظيفة (مدير المدرسة المنصورية) في بريدة آنذاك.

ووجدتني أتمنى شيئاً أعرف أنه لا يتحقق وهو أن يبعث من قبره ليرى كيف كان بيته الطيني المغبر، قد عاد بيوتاً قوية نظيفة مبلطة الأراضي والدرجات والممرات وغدت جدرانه لامعة صقيلة يزل عنها الذّر، وسقفه – جمع سقف- كأنما هي سقف العلبة الكبيرة المتقنة.

وقد حزنت لكون ذلك لا يتحقق، ولكن الذي خفف من حزني أنني تذكرت أنني قد وفيت بحق هذا البيت وبالتالي بحق والدي فعمرته هذه العمارة الجيدة وجعلته وقفاً على من يحتاج إلى السكنى فيه من ذريته، ولا يجد له مسكناً يملكه.

وشيء آخر وهو يقيني بأن روح والدي باقية ولكننا لا نعرف كنهها، ولا كيفية بقائها ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وسكان الزقاق:

وانتقلت أفكاري وذكرياتي من الحديث في نفسي عن والدي إلى تذكر جيراننا وجيران جيراننا في هذا السوق كما يسمونه وهو (الزقاق) وإن كان أوسع مما توحي به لفظة زقاق التي تدل على الشارع أو الممر الضيق، فأجد أن جميع الشيوخ المسنين، والذين هم في منتصف العمر عندما عقلت الأمور في عام ١٣٥٠هـ أي منذ ٧٥ سنة قد صاروا نسياً منسياً وهذا هو سبب غمي و حسرتي، فليس ذلك لكونهم ماتوا، فذلك أمر طبيعي وهو مصير كل البشر، ولكن كل أولئك النفر أصحاب البيوت في هذا الزقاق قد صاروا الآن نسياً منسيا، وجميع أبنائهم الذين هم أكبر مني سناً قد لحقوا بهم، بل إن بعض الذين في سني وأنا الآن في الثامنة والسبعين قد مضوا، والمفجع أنه نسيت أخبارهم، بل نسيت حتى آثار من خلفوا منهم آثاراً وقليل ما هم.

وقد جربت الحديث مع أحفاد أولئك الشيوخ فوجدتني أحدثهم حديث آبائهم وأجدادهم كما أحدثهم عن شخصيات تاريخية يعجبهم الحديث عنها، لأنه لم يهتم أحد من أسرهم ولا من غيرهم بالحديث عنهم أو بيان أحوالهم.

ورأيت وأنا أستعرض أسماءَهم من واقع بيوتهم التي كانوا يملكونها وكلهم عرفته إلاّ واحداً مات قبلهم.

موسى بن عضيب:

فرأيت أن البيت الذي لا يبعد عن بيتنا من جهة الشرق إلاّ بنحو ٤٠ متراً هو بيت جدي لأمي موسى بن عبدالله بن عضيب، وهو شخصية ثرية معروفة ذكرتها في (معجم أسر القصيم) وكيف كان ينقذ الذين كانوا يسقطون في الشوارع والأزقة موتى بسبب الجوع سنة الجوع عام ١٣٢٧هـ.

مدرسة سليمان العمري:

وبيته يكاد يتوج هذا الزقاق بمعنى أنه في واجهته الشرقية، يليه بعد الزقاق من جهة الشمال بيت (سليمان بن عبدالله العمري) وهو قارئ حافظ لكتاب الله، صاحب كتاب افتتحه في هذا البيت يسمونه مدرسة ويسمون المدرس الوحيد وهو صاحبه سليمان العمري (المطوع) وهذه تسمية عامة لكل معلم صبيان، مثلما أنها تسمية لكل طالب علم أو متدين عِرف شيئاً من أمور الدين.

وفي مدرسته أو لنقل كتابه أدخلني والدي في عام ١٣٥١هـ وعمري آنذاك خمس سنوات ونصف، وأذكر أنه لا تزال توجد في رأسي جدائل من الشعر كان الناس في تلك العصور يتركونها على رؤوس الأطفال حتى يبلغوا سن التمييز التي هي تسع سنين أو قبلها أو بعدها بسنة.

ولو ذكرت ما في ذهني عن ذلك الكتاب- بتشديد التاء- لأقتضى الأمر كتابة فصل طويل لا أرى أن هذا مكانه، وإنما محله الترجمة أو ما يسمى بالسيرة الذاتية.

ولكنني أذكر ببالغ الأسف أن المطوع سليمان العبدالله العمري، وقد تتلمذ عليه في هذا الكتَّاب أو المدرسة عشرات من أبناء الأسر القريبة من بيته وهو قرب بيتنا لم ينل من الذكر ما يستحقه، ولا ذكرت مدرسته بشيء، حتى الذين يذكرون التعليم بالكتاتيب في بريدة لم يكونوا يذكرونها لأنها -بالفعل- أقل شأناً من المدارس الكبيرة المشهورة في بريدة والمقصود بها المدارس الأهلية مثل مدرسة عبدالعزيز بن صالح الفرج، وصالح بن عبدالعزيز الصقعبي، وحتى مدرسة (أبوحلمه) وهو محمد بن حمد وهو من الهويمل، ولكن الناس لم يكونوا يذكرون الهويمل في نسبته في ذلك، وإنما يقولون (ابن حمد) وهي كذلك ليست كبيرة ولا واسعة وموقعها أيضاً في شمال بريدة مثل مدرسة العمري.

وقل مثل ذلك عن الذين سأذكرهم من سكان هذا الزقاق وليس من سكان الحي في شمال بريدة فأولئك لهم حديث آخر لا يتسع له هذا المكان.

صالح بن سليمان الغليقة:

وبعد بيت سليمان العمري من جهة الغرب يقع ملاصقاً له بيت (صالح بن سليمان الغليقه) وهو شخص متعدد المواهب، أعتقد أنه لو كان في عصر غير عصره من العصور التي تستثمر المواهب وتقدر النابهين النبغاء لكان له شأن، ذلك بأنه يحسن عدة مهن فهو يصلح البنادق إذا انكسر خشاب البندق وهو الجزء الخشبي منها الذي يضع الرامي بها طرفه على صدره أصلحه وأخذ على ذلك أجراً، غير أنه يوجد اثنان في بريدة يعملان هذا العمل هما سلطان المواش ومحمد العبدان، وكلاهما يصنع (الخْشَاب) في البندق حتى لا يفرق من يراه

بينه وبين (خشابها) الأصلي، وطالما سمعت بعض الأعراب ومن لا يعرفون الأمور يسألون صاحب الحانوت الذي يبيع البنادق هو خشابها أصلي؟ أو يقولون: هو خشابها ولايتي لهذا المعنى أو مخشبة أي قد صنع لها خشاب جديد.

ولذلك لم يكن يعتمد على معرفته بها ولكنه أيضاً يعرف كيف تصلح الأدوات الجديدة في البنادق، وكان له دكان يقع إلى الشمال من دكان والدي في السوق الشمالي الواقع إلى الشمال من جامع بريدة الكبير.

ومهنة ثالثة يجيدها صالح الغليقة ولكنه لا يمارسها إلاّ قليلاً لأن هناك من يحسنها ولا يحسن غيرها كالصواغ وهم الصاغة- جمع صائغ- وهي النقش على الخلاخيل من الفضة، ولكنه لا يفعل ذلك إلا إذا وجد من يقدر عمله.

أما المهنة التي لا يحسنها غيره من أهل بريدة، أو ربما من أكثر القصيم فهي تقدير الشجاج، والشجاج: جمع شجة، وهي الضربة على الرأس، فقد كان الأعراب يتخاصمون على أماكن الرعي وموارد المياه، حتى يبلغ بهم الخصام إلى أن يتضاربوا، فإذا كانت الضربة كسرت رجلاً أو يداً كان هذا مفهوماً واضحاً للقاضي أو الأمير الذي يتشاكون إليه، أما إذا كانت الضربة على الرأس فإنها تكون غير واضحة لأن الأعراب لا يحلقون شعور رؤوسهم، ولكل شجة أي ضربة على الرأس حكم خاص عند الفقهاء، فالشجة التي تخرق الجلد فقط، ولا تتوغل في الرأس لها وضع خاص ودية خاصة، والدية هنا مقدرة عند الفقهاء القدماء بالإبل، كأن تكون خمساً من الإبل إذا كانت دية القتل الكامل ٨٠ أو مائة بعير مثلاً.

وهناك الشجة التي تتوغل في الرأس حتى تصل إلى عظم الجمجمة ولكنها لا تكسره تكون لها دية أكثر من ذلك، أما التي تهشم العظم مع ذلك فإن الغرامة عليها أكثر من ذلك.

والأعراب بطبيعة حياتهم تكون رؤوسهم على غاية من التعفن وقلة النظافة، بحيث يصعب على القاضي أن يحكم على درجة الشجة، لاسيما أنهم يتركون دماءهم في رؤوسهم بدون غسل، بغية أن يعرف القاضي أو أمير البلاد ما خرج من الدم وتجمد على الرأس بسبب الضربة.

وصالح الغليقة مختص بمعرفة درجات هذه الشجاج لا يعرف ذلك غيره في بريدة، ولذلك كنا ونحن جيرانه نرى جموع الأعراب معهم (رجَّال الشيوخ) الذي هو رجل الأمير كالشرطي يحضرهم إلى الغليقة، وأحياناً يكون معهم أكثر من رجل واحد لئلا يتخاصموا أو يتضاربوا.

فصالح الغليقة عنده مسبار من الحديد أو من الفضة لا أدري يقيس به الشجة عن العظم إذا احتاج إلى ذلك.

وكان منظر الأعراب وهم كذلك منفراً، بل مقرفاً فما بالك بأعرابي لا يغتسل ولا يغسل ثوبه يكون على رأسه الدم الذي لم يغسله وهو في حالة نفسية تفوح بسببها من جسم الرجل في العادة رائحة غير محببة.

وهناك مهن أخرى يحسنها صالح الغليقة، ولكن لا يكثر من تعاطيها، لعدم وجود من يرغب في ذلك، أو لنقل: إنه لعدم الجدوى الاقتصادية منها.

عبدالله بن سمحان:

يلي بيت الغليقة من جهة الغرب ونحن الآن نسير مع الصف الأيمن من بيوت الزقاق بالنسبة لمن يستقبل القبلة بيت عبدالله بن عبدالعزيز السمحان، وهو رجل من عقيل الذين هم تجار المواشي الذين يتاجرون بها بين القصيم، بل بين نجد وبلاد الشام وفلسطين و مصر، وليس ذلك الذي جعلنا نذكره هنا فعقيل عددهم كثير، وربما لا يكون وصف الواحد منهم بذلك مقتضباً أن ينوه به إلاَّ من الذين عندهم مال وقليل ماهم، ولكنهم يجمعون ما يأخذونه من

أشخاص كثر فيضمونه إلى ما قد يكون عندهم من مال، يتأجرون به، وللتاجر هذا جزء يتفق عليه بينه وبين من أعطاه المال، وغالباً ما يكون له النصف إذا لم ينفق من المال الذي يتاجر به بموجب اتفاق بين الطرفين، أما إذا كانا اتفقا على أن المصاريف التي ينفقها تكون من المال فإن نصيب التاجر يكون أقل.

وكل هذا مبني على الثقة والاتفاق بين الطرفين.

لقد كان ابن سمحان مفكراً في وقت قلَّ فيه المفكرون، فقد فكر في استغلال بعض الآبار القريبة الماء ومنها كانت قليب تسمى المندسة في شرق (المتينيات) يفصل بينهما الكثيب الرملي الذي أصبح الآن حياً سكنياً بعد أن لم نكن عهدنا فيه إلا الأرانب والثعالب، فأحضر معه من العراق مضخة قوية تحرك باليد، ومعها قصب أي أنابيب حديدية ثقيلة أحضرها من العراق إلى بريدة يحملها على بعيره إذا أراد السير، وينزلها عنه إذا نزل مع مشقة ذلك.

وصار يرى الناس كيف يستعمل هذه المضخة ومنهم والدي وهو جارنا فقد أحضر قدراً كبيراً مملؤاً ماءً وجعل أسفل القصبة أي الأنبوب الحديدي فيه، وأخرج أعلاها مع سماوة القبة وهي بمثابة (الصالة) الكبيرة في البيوت الطينية القديمة وجعل قدراً ك بيراً فارغاً من الماء في السطح ثم صار يحرك هذه المضخة بيده، فصار الماء يتدفق في القدر الذي في السطح مما كان موضع عجب المشاهدين، واستغرابهم، وقال: هكذا أزرع عليها واستغني عن (البعارين) وجربهن وعلفهن!!!

ناصر بن عبد الرحمن العبودي:

يلي بيت ابن سمحان من جهة الغرب بيتنا وصاحبه والدي (ناصر بن عبدالرحمن العبودي) وهو إخباري مجيد وشخصية محبوبة من الجميع.

وقد تميز بصنع البارود وهو المادة المتفجرة التي توضع في البنادق، تستعمل للحرب وللصيد، يحضر لدق الملح أي لعمل العمل الشاق منهم عمالاً معروفين لي الآن، ولا يحسن صناعة البارود غيره، وغير أبناء عمه، أما في غير بريدة والقصيم فلا يوجد غيرهم إلاّ أفراد يصنعونه لأنفسهم لأنه شاق خطر، ولكن والدي يعين عمالاً بأجر جيد.

محمد بن علي الطرياق:

يلي بيت والدي من جهة الغرب بيت الطرياق وهم ثلاثة إخوة أكبرهم وهو وجيههم محمد بن علي الطرياق، وهو قوي الجسم أكول ثقيل البدن، لكن أعصابه قوية مثل جسمه فكان يعرف أنه لا يسيطر على المجنون الهائج إلا هو، وعادتهم أنه إذا جُنَّ إنسان وهاج وصار يهاجم الناس وقد يقتلهم أو خيف منه أن يفعل ذلك طلبوا شخصاً قوي البدن، متين الأعصاب يمسك به يسيطر عليه و يقيده بالحبال أو يضع في رجليه الحديد حتى لا يستطيع أن يلحق الأذى بأحد.

وأذكر أن رجلاً كان يعتاده جنون غير مطبق إذْ كان يفارقه الجنون إلا أنه يجن ويهيج لسبب غير معروف ولا متوقع، ويأخذ أحياناً سلاحاً كالسكاكين، أو قطع الحديد يهاجم بها الناس، فإذا حصل منه ذلك نادوا (محمد بن علي الطرياق) مسرعين فيمسكه ويسيطر عليه ويقيده ثم يتركه لأهله يعتنون بأكله وبشربه.

هكذا كانوا يفعلون بالمجانين، ولم يكن لدى الحكومة أي عمل في هذا الأمر غير أنه إذا وجد مجنون في أسرة من الأسر وخيف على الناس منه ولم يمنعه أهله من ذلك بمعنى أنهم لم يقيدوا حركته فإن الحكومة تتدخل وتقول لهم: حَدِّدوا مجنونكم أي ضعوا الحديد في رجليه أو يديه، أو فيها كلها، فإذا لم يفعلوا سجنتهم الحكومة، لأنهم يتسببون بإلحاق الضرر للناس عن طريق إهمال تقييد حركة ذلك المجنون.

إن محمد الطرياق هذارجل شهم يفعل أفعالاً من أفعال الخير لا يبغي منها أجراً مثل خلع الأضراس، فكانت لديه مقلاع وهو كالزرادية من الحديد القوي يخلع به الأضراس محتسباً، معتاداً على ذلك من دون منفعة شخصية له إلاّ دعاء من خلع ضرسه أو لمعرفة بشهامته.

ولم يكن هناك بنج ولا أية مسكنات، فلم يكن الناس يعرفون شيئاً من ذلك، والمؤلم أن بعض الذين يريدون أن يخلعوا أضراسهم يكون الضرس عندهم غارقاً في اللحم لا يستطيع المقلاع أن يمسك به، فيجعل الخالع عنده مسماراً حاد الرأس يبدأ بإبعاد الأعصاب واللحم المحيط بالضرس حتى يستطيع إمساكه بالمقلاع، وأحياناً يكون الضرس واضحاً يمكنه أن يمسك به المقلاع، ولكنه ثابت في الحنك بقوة، فالخالع يبعد اللحم عنه حتى يستطيع أن يخلعه.

وقد شهدت مناظر مؤلمة لمن تكون أضراسهم كذلك إلى درجة أن الخالع يطأ على رأس الذي يريد أن يخلع له ضرسه حتى يبقى رأسه ثابتاً على الأرض وهو فاتح فمه، وإذا صاح أو صرخ يقول له الخالع: (وجع مرة ولا وجع مرتين) وهذا مثل شائع.

ونعود إلى محمد الطرياق فنقول: إنه كريم وجيه كثيراً ما يولم الولائم لمن يدعوهم من كبار القوم الذين لهم علاقة به.

وإنني الآن أشاهد بيت الطرياق الذي كان فيه ثلاثة إخوة مع أسرهم وهم محمد هذا وأخوه سليمان وأخوهما الأصغر إبراهيم، فأجده الآن قاعاً صفصفاً فقد هدم وأزيلت جميع مبانيه حتى سوي بالأرض، وذلك أنه سبيل، لم تتيسر عمارته، أو هذا ما قاله لنا كبار الأسرة.

أما البيت الذي يلي بيت الطرياق فإنه بيت للإيجار تداوله أكثر من أحد وليس فيه من الشخصيات من له أهميته.

علي الدّخيل:

ويأتي بعده من جهة الغرب التي هي جهة القبلة بيت علي الدخيل- بكسر الدال والخاء وإسكان الياء، وهو أخ لصالح الدخيل الذي كان أميراً في عدة بلدان في الشمال الغربي من المملكة، وممن لهم صلة قوية بالوزير عبدالله بن سليمان وزير الملك عبدالعزيز قبل إنشاء الوزارات.

علي السكيتي:

ثم يأتي بيت علي السكيتي، و(السكاتى) كما يقول الناس لهم هم خمسة إخوة أكبرهم عبدالرحمن السكيتي وهو والد شيخنا الشيخ صالح بن عبدالرحمن السكيتي الذي قرأت عليه العلم في أول عهدي بالتعلم ثم صار معلماً في المعهد العلمي في بريدة الذي كنت مديره.

و(السكاتى) أصحاب إبل ينقلون عليها البضائع ويتاجرون بها إلى جهة الشمال أي الشام وفلسطين وإلى جهة الأحساء.

وعلي هذا هو أصغرهم وقد تزوج من اليمن مرتين، حيث إنه لم يستقر على الزواج من امرأة واحدة أو امرأتين من أهل بريدة.

علي بن منيّع:

وبعده بيت (علي بن مُنَيِّع) وهو من القلائل الذين كانوا يسافرون إلى المدينة في تلك العصور وقبل ذلك كان والده يعتاد السفر إلى المدينة يعمل فيها ويسترزق الله منه.

وأذكر أن (علي) بن منيع هذا هو أول من أدخل البامية إلى الزقاق، فلم نعرف (الباميا) أو البامية هذه الخضرة التي صارت الآن شائعة، بل ولا سمعنا بها، ولو قيل لنا عنها شيء لم نصدق.

وأول من أحضرها هذا الرجل كانت عنده مناسبة فأحضرها وكنا أطفالاً كان نصيبنا منها اللعب بقموعها، كنا مع الصبان نضع الأقماع على جباهنا فلتزق بها لأنها من جهة أصبع الباميا.

وعلي بن منيِّع وهو بإسكان الميم وفتح النون وتشديد الياء مع كسرها على لفظ تصغير (مِنيع) والمنيع أسرة أخرى من أهل بريدة وغيرها، وبيته هو آخر البيوت من جهة الغرب على الشارع الذي يسمى بعد توسعته بشارع الصناعة، ولذلك سوف نتركه وننعطف راجعين إلى جهة الشرق لنستعرض الصف الأيسر لمن يكون متجهاً إلى القبلة من بيوت الزقاق بعد أن أكملنا ذكر الذين كانوا في الصف الأيمن منه.

دحيم الرسي:

وأولها بيت (دحيم الرسي) وهو رجل يستحق الذكر إذْ عاش في دبي على الخليج ٢٥ سنة وقت أن كانت دبي قرية صغيرة تعيش على صيد السمك، ولكن أهل نجد في تلك العصور إذا وجد الواحد منهم في الغربة بلداً يستطيع أن يؤمن له العيش المجرد عد ذلك كافياً، وإن كان يأمل الغنى فيما بعد، إلاّ من كانوا أرياب أسر ذهبوا إلى بلاد غريبة يؤمل فيها الغنى فإما أن يكسبوا أو يرجعوا برؤوس أموالهم لا ظالمين ولا مظلومين أو على حد مثلهم العامي (للوم، لا ظالم ولا مظلوم).

وأحياناً تكون الأخرى وهي الخسارة في التجارة، وتلك هي الكارثة، ولكن الكوارث لا تشاور الإنسان عندما يقضي عليه أن تصيبه.

والكوارث في السفر كثيرة من الأعراض التي من أولها تعرضاً للمسافر هوام الأرض من الحيات والعقارب ، العقارب عندهم لا يقتل سمها، وإنما الحيات التي بعضها يقتل بعد لدغه بوقت قصير- ومثل لصوص الأعراب الذين قد يسرقون ماشيتهم ولا يسلمون في أكثر الأحيان من إصابتهم بأجسادهم بعد أموالهم.

وهناك سباع البر التي قد تأكل الأغنام، وإذا اجتمعت على بعير وهي جائعة فإنها قد تأكله إذْا لم يكن حوله من يمنعها منه، أما إذا كان الذئب واحداً فإنه لا يقوى على أكل البعير، فضربة من رجل البعير أو رمحة، وهي الضربة بالرجل تجعل الذئب يعود إلى صوابه، ولا يعترض لذوي الأجسام الكبيرة.

وهناك الأمراض العديدة التي لبعضها علاج وبعضها لا علاج له، وبعضها يأتي على هيئة أوبئة في بلاد الأمصار التي يسافر إليها المسافرون من أهل نجد فيتعرضون لها.

وطالما سمعت (دحيم الرسي) وأنا صغير يقص على جيراننا قصصاً عن معيشته في دبي آنذاك، وكان رجوعه منها في عام ١٣٥٣هـ أو نحو ذلك، فهو ذهب إليها قديماً، ولو كنت على ما أنا عليه اليوم من تتبع الأحاديث المستغربة وتسجيلها لكنت سجلت عنه غرائب وعجائب.

علي بن محمد الحامد:

يأتي بعد بيت دحيم الرسي من جهة الغرب بيت (الستاد) علي بن محمد بن حامد، وكلمة الستاد تدل على صنعته وهي أنه معلم بناء ماهر في ذلك، إذْ هذا اللقب لا يمنح إلاّ لمن يكونون كذلك.

فهو معلم بناء ماهر تتبعه عاملة وهم جماعة من يلزم وجودهم لبناء البيوت الطينية مع (الستاد)، منهم الخلاط الذي يخلط الطين برجليه، ومنهم (المزوري) الذي يعمل الأعمال البسيطة، ولكنه أرفع قدراً من الخلاط من حيث المعرفة بأمور البناء والقرب من الستاد.

وقد اشتهر الستاد ابن حامد بإجادته للبناء بالطين حتى طلبه الملك عبدالعزيز فيمن طلبهم من البنائيين بالطين من بريدة لكي يبنوا له قصراً

بل قصور المربع في الرياض، فسافر بالفعل إلى الرياض، وكان أول ذلك في عام ١٣٥٣هـ.

ثم تكرر ذهابه إلى هناك يذهب عندما يفتك (النَّوُ) ومعنى ذلك وقوف نزول المطر أي كون المطر لا ينزل في العادة، لأن المطر إذا نزل أفسد على أهل الطين عملهم، وافتكاك النو، أو انفكاك النو على حد تعبير بعضهم يكون في أول شهر مايو ثم يعود بعد دخول الوسمي واحتمال أن ينزل المطر، وذلك في شهر أكتوبر أي إنه يستمر نحو ستة أشهر هي أشهر الجفاف في نجد.

وإلى الغرب من بيت الستاد ابن حامد بيت ليس كثير المنازل المبنية، وإن كان له حوش كبير كان جيراننا يسمونه (بيت المدلج) وهي أسرة من أهل بريدة تقلص أفرادها، وخبا ذكرها، ثم اشتراه آل هويمل وهما فهد وعبدالله أبناء حسن الهويمل وفهد هو والد الدكتور حسن الهويمل الأديب المعروف ورئيس النادي الأدبي في بريدة من الكتاب والمؤلفين في الأدب.

وبعد ذلك سوق ضيق يقع إلى الغرب منه مباشرة وعلى طول هذا السوق الضيق بيت:

عبدالله بن خليفة:

وعبدالله بن خليفة والده اسمه خليفة السعيدان غلب عليه اسم الخليفة لأسرته وهذا الرجل يستحق أن يؤلف في سيرته كتاب حافل فهو أول نجدي سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث عاد منها إلى بريدة قبل الحرب العالمية الأولى، وهو إلى ذلك رجل نبل وإنسانية حتى إنه يفتح بابه بعد صلاة الظهر من كل يوم للفقراء، والمساكين ومنهم المجانين الذين يجدون عنده القهوة وأحياناً التمر.

ويتجلى نبله في حدبه على الأيتام والفقراء والنساء الأرامل، ومع ذلك هو وجيه له صداقات بأكثر إن لم نقل بجميع رؤساء القرى والبلدان في القصيم، فكنا نراهم يأتون إليه في بريدة فيضيفهم ويتحدث إليهم، ومنهم أشخاص معروفون مثل أمراء الرس وقصر ابن عقيل وقصيباء، ومن الوجهاء غير أمراء القرى الشبالَى- جمع شبيلي وهم عبدالله بن حماد الشبيلي وأخوه سليمان.

بيت زين العين:

بعد بيت عبدالله بن خليفة من جهة الغرب بيت (زين العين) ملاصقاً له من جهة الغرب ويعرف عندنا بيت الفرحان، لأنه كان في أول الأمر لفرحان زين العين ثم توفى وله بنات، وليس له أبناء فصار أخوه (سلطان زين العين) يأتي إلى بنات أخيه لرعايتهن والقيام عليهن بما يستطيع.

و(سلطان زين العين) هذا شاعر مفلق معروف عند هواة الشعر العامي ومتتبعيه، ولشعره حلاوة، وعليه طلاوة، ولو جمع لكان ديواناً حافلاً لأنه يصرح بذم من يستحق الذم عنده، ويمدح من يستحق المدح.

وكان (سلطان زين العين) هذا قصير القامة قصراً لافتاً للنظر يلبس عمامة كبيرة ثم رأيته صار يلبس عقالاً سميكاً، وله مجالس مع (الزكرت) الذين هم هواة المجالس الشعبية الأدبية، وعلى رأسهم (آل طامي) فكان (سلطان) يعمر مجلسهم بشعره وقصصه.

وقد انقطعت أخباره وأخبار أسرته عنا فلا أدري ماذا فعل الله به ولا بهم.

وبيت (الفرحان) هو آخر بيوت الزقاق من جهة الغرب، وهو واقع على شارع الصناعة القديم، الذي حَلَّ محله شارع الصناعة الحديث.

كل أولئك القوم طوتهم الأيام، وطمرهم التراب فصاروا أثراً بعد عين، وأثرهم ماثل في قبورهم، ثم ذهبت حتى عيون قبورهم ذهاب المعرفة، لا ذهاب الوجود، فلم يعد يعرف قبورهم أحد، وإن كان يعرف أن بعضهم قد دفنوا في المقبرة الفلانية وبعضهم في المقبرة الأخرى:

يا ويح هذي الأرض ما تصنع أكُلَّ يوم للورى تبلع؟
تزرعهم حتى إذا ما استووا واينعوا تقلع ما تزرع!

ومرة أخرى نقول ما لا يحتاج إلى قول وهو أن (الموت حَتْم في رقاب العباد) وكما يقول المثل العامي: (الموت، ما منه فوت) ولكننا نتبعه بأن نقول ما يحتاج إلى قول وربما إلى قول مكرر معاد وهو أن نسيان آثار الأجداد، وعدم تسجيل أحوالهم هو من الإهمال الشنيع، بل يكاد يصل إلى حد الجحود والعقوق.

فهؤلاء الذين ذكرتهم هم في زقاق واحد قصير من شمال بريدة القديمة فما بالك ببقية أزقة الحارة وشوارعها، بل ما بالك بكل من في بريدة وفيهم من هو مستحق أن يسجل ذكره، وأن يعرف أمره مثل هؤلاء أو أكثر.

لقد حاولت أن أكسر هذه القاعدة القائمة على الجهل أو التجاهل بما كان عليه آباؤنا وأجدادنا وأهل بلادنا وبخاصة ما يتعلق بذواتهم، وما يحسنونه من قول أو فعل، وبصفاتهم وما يكون فيها من حسن يجمل ذكره، أو قبيح يحسن ستره، وليس لنا مثل السوءِ في تتبع القبيح، وإنّ لنا في نشر الحسن الصحيح ما يغنينا ويغني التاريخ عنه فضلاً عن الإكثار منه.

فكانت محاولتي في كتاب (معجم أسر القصيم) الذي لم ير النور حتى الآن وما يزال الأدباء وغيرهم من أهل القصيم يسألون عنه ويلحون في

طلب نشره والإفراج عنه، ولو كانوا يعرفون عذري لقالوا ما قال الأول: (لعل له عذراً وأنت تلوم) فأنا أريده كتاباً عميقاً موسعاً ومسجلاً شاملاً لجماعتنا وبني قومنا، ولا يتأتي لي ذلك إلا إذا كنت في بريدة بعد أن أتقاعد، أما أن اختصره فابتسره ليكون ككتب الأنساب الحديثة التي هي إلى اختصارها واقتصارها على ما تعرفه العامة، وأنصاف العامة، تجمع الغث والسمين، وتذهب ذات اليسار وذات اليمين، مما لا تكون فيه فائدة تذكر، بل إنه قد يستر الفائدة التي قد توجد ويشوش على الفائدة الموجودة.

العودة إلى الواقع:

عدت إلى الواقع بعد هذه الجولة التاريخية وأنا لم أغادر مكاني في زاوية من زوايا بيتنا هذا، ولكنني لم أستطع الابتعاد بتفكيري عنه، فمر بي الخيال إلى والدي وهو يغادر بيته قاصداً دكانه في سوق بريدة القديم وما كان يصادفه ويصادفني أنا في الذهاب إليه، أو في العودة منه، إلاّ أن كبحت جماح تفكيري، وناديت الذين معي بصوت مرتفع لكي أعود إلى الواقع، وقد عدت.

ثم عدت إلى مقر عملي في مكة المكرمة، عن طريق الرياض.

ولكنني بعد مضي سنتين انتهى فيها بناء البيت عدت إليه، وكتبت المذكرة التالية:

قبل خمس وسبعين سنة:

عدت إلى بيت ذلك في بريدة بعد سنتين، فوجدته مكتملاً على الوجه الذي أريده فكتبت المذكرة التالية:

عقلت الأمور المهمة قبل خمس وسبعين سنة أي عام ١٣٥٠هـ.

كان عمري إذْ ذاك خمس سنين، وكنت أذكر الناس يتداولون فيما بينهم قولاً فيما يشبه الحلم عندي وهو قولهم (طِقّ التيل) وطق بالبناء للمجهول والتيل: البرقية فهم يريدون بذلك أن البرقية أو اللاسلكي قد وضع في بريدة في ذلك التاريخ.

والذي وضعه هو الملك عبدالعزيز آل سعود، رغم معارضة بعض المشايخ وطلبة العلم المتشددين الذين رأى بعضهم فيه سحراً وكهانة، لأنه يأتي بالخبر من بلد بعيد إلى بلد بعيد آخر في اليوم نفسه، كما يفعل الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم بمثل ذلك.

وبعد أن كبرت قليلاً كان بعض الناس لا يزالون يعتقدون أنه سحر وكهانة، وأن أهله يستخدمون الشياطين في نقل أخباره.

ولا أزال أذكر كيف أن والدي أدخلني إلى كتَّاب لتعليم الصبيان يسمونه المدرسة وعمري لم يتجاوز السنوات الخمس، لأن الكتَّاب واقع بجانب بيتنا من جهة الشرق لا يفصله عنه إلا بيت واحد هو بيت صالح الغليقة وصاحب الكتَّاب – بتشديد التاء- أو المدرسة هو سليمان بن عبدالله العمري المتقدم ذكره.

كانت والدتي قد مانعت في أن أدخل الكتَّاب أو المدرسة في هذه السن المبكرة ووالدي قال: إنه بجوار بيتنا، وأحسن له أنه يتعود على المدرسة ولو لم يستفد شيئاً أول الأمر، أو (سواني بلا ماء)، كما عبر عن ذلك لأحد أصحابه.

والسواني هي الإبل التي ترفع الماء من باطن البئر إلى وجه الأرض لاستعماله في سقي النخل والزرع، وإذا كانت تلك السواني لا تخرج ماءً من

البئر فهي (سواني بلا ماء) وهذا مثل ضربوه، وإلاّ فإنهم لا يمكن أن يدعوا السواني تسني بلا ماء، إلا إذا كان البعير الذي يسني حديث عهد بالسني، لم يمرن عليه من قبل، فإنهم قد يجعلونه يسني بلا ماء فترة قصيرة من الوقت حتى يمرن على هذا العمل ويتعود عليه.

وفاة الشيخ عبدالله بن سليم:

الشيء الذي أعيه الآن كما كان قبل ٧٤ سنة هو وفاة الشيخ عبدالله بن محمد ابن سليم قاضي بريدة وما يتبعها من القصيم، إذْ كانت وفاته في عام ١٣٥١ وقد غشي الناس خوف وفزع شديد لموته حتى وصل ذلك إلى النساء في بيوتهن، ذلك بأنه عالم جليل، وهو مثل علماء نجد في تلك العصور عالم عامل عابد، فكان الناس يعظمونه وأمثاله لأسباب كثيرة منها ما ذكرته ومنها أنه هو عالم المدينة الذي يتخرج من عنده فقهاؤها وعلماؤها، والذين لم يقرؤوا العلم عليه من صغار الطلبة قرءوه على تلامذته، فهم إذاً تلاميذ له من طريق غير مباشر.

وأذكر أن خبر وفاته وصلنا ونحن في المدرسة وقد ارتفع الضحى فأرخص (المطوع) الذي هو معلم المدرسة لجميع التلاميذ بالذهاب إلى بيوتهم، ليس ذلك إلا لكون الأمر عظيماً، وإلاّ فإنهم لا يحسنون أن يصلوا عليه مع الكبار.

وقد أغلق أهل الدكاكين دكاكينهم من دون أن يأمرهم أحد بذلك، ولكن لكون الأمر عظيماً، ومن أجل أن يصلوا صلاة الجنازة على الشيخ، وهم لا يعلمون أيكون ذلك بعد صلاة الظهر أم في الضحى بمجرد أن ينتهي تجهيزها للصلاة.

ولم يتخلف أحد من البالغين عن الصلاة على الشيخ في جامع بريدة الذي يعرف الآن بجامع الملك فهد، وكان يعرف قبل ذلك بهذا الاسم المختصر (المسجد الجامع) لأنه لا جامع فيها غيره، أي لا تقام صلاة الجمعة في مسجد آخر في بريدة كلها غيره.

عمل والدي:

كان عمل والدي التردد ما بين بيته في شمال بريدة وبين دكانه في سوق بريدة القديم الذي يقع إلى الشمال من الجامع، وهو الذي صار (سوق الخراريز) بعد أن وجد سوق بريدة الرئيسي الذي تتوجه الجردة: جردة بريدة.

كان دكانه وقفاً لعمته واسمها (منيرة بنت عبدالكريم العبود) لأن أسرتنا لم يكن لحق باسمها حرف الياء فصارت (العبودي).

وقد ماتت حسبما يظهر من وصيتها التي نقلها الكاتب المجيد الثري الشهير (الملا ابن سيف) في نحو عام ١٢٨١هـ، وذكر تنفيذ وصيتها في عام ١٢٨٢هـ، لأنه كان الوصي على تركتها الذي يسمونه الوكيل.

فكان والدي يسير على ما كان يسير عليه والده بأن يسكن ذلك الدكان، وينفذ وصية صاحبته في ذبح الأضحية وفي إخراج العشاء لها في رمضان، والعشاء هذا من الوصايا المماثلة ليس وقفاً على الفقراء، بل هو طعام يكون في يوم خميس أو جمعة من رمضان يأكله أقارب الميت ولو كانوا أغنياء، إلاّ أن بعض الناس يحرصون على أن يطعموا منه الفقراء طلباً للثواب له.

وكان عالمي الصغير آنذاك هو المدرسة بمن فيها من طلبة لم يربوا تربية تصلح للمدرسة لأن أكثرهم لم يدخل أهلوهم مدرسة قط، أو دخلوها ولكنهم لم يحصلوا منها على علم يستحق الذكر.

وبيتنا مجاور للمدرسة وهو بيت لا بأس بسعته الحسية لأن فيه منازل عديدة واسعة وفيه (مراح) وهو الحوش المكشوف في جانب منه الحسو وهو البئر التي يستخرج منها الماء لأغراض التغسيل والتنظيف والوضوء ونحوه، إلا الشرب فإنه لا يصلح لذلك لأن ماءه ملح.

وفيه نخلتان إحداهما سكرية والأخرى حلوة وهما تشربان من فضلات الماء الذي يستعمل للوضوء والغسل ونحوهما، وإذا كان الوقت صيفاً، واحتاجت النخلتان إلى زيادة ماءٍ أمر والدي نساءه وهن ثلاث إحداهما ابنة عمه: زوجته، وقد تزوجها قبل والدتي ولم يعش له منها أبناء ذكور، وإنما عاش له منها بنتان، ووالدتي التي هي الزوجة الثانية، وقد رزق منها بأبناء: أنا أكبرهم وأصغرهم أخي عبدالكريم الثاني كما كنا نسميه في البيت إذْ ولد لأبي من أمي بعدي ابن أسماه سليمان مات قبل أن يكمل السنتين بقليل، بسبب مرض من أمراض الأطفال التي كانت شائعة في ذلك الوقت.

ثم رزق بعده من أمي بابن أسماه (سليمان) على اسم الذي مات فكنا نسميه سليمان الثاني إلى أن شب، وقد عاش وتخرج من كلية الشريعة في الرياض بتفوق لذلك عُيِّن فوق تخرجه قاضياً عضواً في محكمة بريدة وقد بقي في القضاء سبع سنين إلا أنه عندما نقل عمله إلى خارج بريدة طلب النقل من القضاء إلى التدريس، وبقي في العمل الحكومي حتى تقاعد في عام ١٤١٠هـ ثم توفي في عام ١٤١٥هـ.

أما عبدالكريم وهو الأصغر منا فإنه جاء إلى والدي بعد ابن كان أسماه (عبدالكريم) على اسم جده الثري الوجيه عبدالكريم بن عبدالله العبود، وكانت ولادته في عام ١٣٥٦هـ وتقاعد قبل سنوات ولا يزال حتى الآن في صحة جيدة.

والثالثة من النساء التي كانت تسقي النخل هي أختي لأبي، وهي أكبر أولاد أبي واسمها هيلة.

كان والدي يحرص في ذلك الوقت على أن يأخذني معه إلى الدكان من أجل الأنس، وحفظ الوقت، كما كان يحرص على أن يأخذني معه إلى المسجد من أجل تعويدي على الصلاة مع الجماعة.

والمسجد القريب من بيتنا هو (مسجد ابن شريدة) نسبة إلى عبدالرحمن بن شريدة جد (الشريدة) الأسرة المشهورة في بريدة لأنه هو الذي بناه، ووجدت في المسجد عالماً آخر، وإن كنت لا أفهمه، فالذين يرتادونه كلهم من الكبار ما عدا قلة من الأطفال مثلي كان أهلوهم يحضرونهم إلى المسجد ليتعودوا على الصلاة، فكنت أسارع إلى من يكونون بقربي منهم لأكلمهم أو لنمارس شيئاً من اللعب فينتهرنا بعض غلاظ الطبع قائلاً: خلوا عنكم اللعب، ونحن لم نكن نعرف من المسجد غير اللعب في ذلك الوقت، إذْ لم يشرح لنا أحد كيفية الصلاة، ولم يخبرنا عن الأدعية التي تقال فيها.

وأذكر أنني تعجبت جداً عندما كبرت وعرفت أن الناس كانوا يقولون أشياء في الصلاة من قراءة الفاتحة أو نحوها، ومن الأدعية، فقد كنت قبل ذلك أقف ساكتاً في الصلاة وأركع وأسجد ساكتاً فيها، وأظن أن الناس كلهم مثلي يفعلون.

وقد لمت والدي رحمه الله عندما لم يعلمني أول الأمر ماذا يقال في الصلاة ولكنه أجابني بأنني صغير على ذلك، ولا يمكن أن أفهم معناها، قال: وإذا كبرت تفهم وقد كبرت بالفعل وفهمت.

أما في المدرسة التي يفترض فيها أن تعلم التلاميذ فإن الأمر أعظم وأطم، فقد كان التعليم فيها هو التلقين بدون أي تفهيم وقد يكون هذا محتملاً، وإن كان التلميذ لا يعرف حروف ما يقرؤه، بحيث لا ينتفع بها في قرائة ما لم يلقن إياه من قبل ولكن سوء الفهم ذلك يبلغ ببعض الطلبة العارمين ومن سكت من الجهال على تعلمهم أن يرتبوا سجعات من عندهم بعد الآيات القرآنية.

ومن ذلك أن المطوع أو من يندبه من كبار التلاميذ لتلقين صغارهم قد اعتادوا على أن يلفظوا بمقاطع قصيرة من الآيات حتى تسهل على الطلبة

متابعتها وإن لم يكن الوقف فيها صحيحاً، فعلى سبيل المثال عند تلقين التلميذ سورة (أبي لهب) يقول التلميذ الكبير (تبت يدا) فيتابعه التلميذ الصغير (تبت يدا) فيقول الملقن (أبي لهب وتب) فيتابعه أيضاً (أبي لهب وتب) من دون أن يعرف معنى تبت (يدا) فضلاً عن أبي لهب.

وهنا يأتي دور الأغبياء الذين لم يربهم أهلوهم تربية صحيحة فيركبون بعد الآية سجعات، اثنتين أ و ثلاثاً ويقولون إذا كان الوقت ضحى وهو وقت الغدا، عندهم لأنهم لم يكونوا يفطرون (تبت يدا) (هات الغدا، تمر ولبن وبسر حلَى).

والحلى: جمع حلوة وهي نوع معروف من التمر.

ومثل قولهم في (سندعو الزبانية): سند عبد الزبانية.

وأشياء من هذا لا يستطيع الإنسان أن يذكرها ولو من باب إنكارها لفظاعتها.

ومن الإنصاف أن نقول: إن المطوع ينكر ذلك إذا علم به ولكن هذا ما يفعله التلاميذ فيما بينهم أو عندما يغيب (المطوع) عنهم.

اللعب في السوق:

لم يكن والدي يحب لي أن ألعب وأنا صغير مع أولاد السوق الذي هو الزقاق لأنني صغير على ذلك، وربما ضربني واحد من الأطفال الذين هم أكبر مني، فلا يستطيع والدي بداعي العرف وحسن الجوار، أن يضرب ذلك الولد ليقتص لي منه.

وأذكر أنني وأنا صغير رأى أحد الصبيان الكبار من أهل سوقنا أن خدي عريض بزعمه، فقال: (يا زين خَدّك للصطرة) والصطرة هي الضربة بالكف على الخد، أي الصفعة، ثم صفعني صفعة مؤلمة ذهبت أبكي لوالدي منها.

فقال: يا وليدي هذولا جيران، ولا نقدر نقول لهم (شي)، ثم نادى الولد الذي صفعني، قال له: هذا الحميدي أخوك كيف تصطره؟ ثم أمسك به بقوة وقال له: لو صطرتك هالحين يوجعك؟

فقال الولد: إلاّ، فقال والدي له: أجل، يبي الحميدي يسامحك هالمرة ولا تعود له، فقال: سم، يا عم.

ولم يعد لفعلته تلك.

ولكن الصبيان لا يمكن الحكم عليهم فأذكر أنني ضربت طفلاً لأحد جيراننا الأبعدين فذهب إلى والده يصيح فجاء والده إلى بيتنا، وقال لوالدي: يا أبو محمد ولدك محمد ضرب ولدي أنت تبي تربيه، وإلا أربيه أنا؟ أخذ هذا من اصطلاح عامي يقول الرجل للطفل أو نحوه، والله لأربيك.

يريد لأضربنك ضرباً يجعل سلوكك يكون جيداً في المستقبل.

فسأله والدي، عن الأمر فذكر أنني ضربت ابنه فقال والدي: أنا أربي إن شاء الله ولدي ولا يضرب ولدك مرة أخرى.

ولم يضربني أبي، وإنما تكلم معي أن ذلك لا ينبغي فلم أعد لمثله.

عالم الصغار:

كان عالمنا نحن الصغار – آنذاك منحصراً في اللعب وإن كان ذلك يتفاوت من صبي إلى آخر، فصبي يكون همه كله منصباً للعب ولا يعرف غيره، ولا يطيع أهله، وصبي أو صبيان يلعبون وقت اللعب ويساعدون أهلهم في أعمالهم فيما عدا ذلك، وبعضهم وهم القليل ينتظمون في الدراسة بالمدرسة، ولكن المدرسة ليست لها نهاية محددة، وإنما من أراد أن يدخل فيها دخل ومن أراد أن يخرج خرج والقياس عند أهل الصبي، فإذا شعروا أنه بدأ يحسن الكتابة ولو كانت كتابة رديئة ويحسن قراءة القرآن ولو كانت قراءة غير مجودة اعتبروه انتهى من المدرسة،

فيكلفونه العمل في مهنتهم إن كانوا فلاحين عمل معهم في الفلاحة وإن كان والده تاجراً ساعد والده في عمله التجاري الذي يتمثل في الجلوس في حانوته، أما إذا كان من أرباب الصنائع كالخراز والحداد والنجار فإن ولده يساعده على عمله وهو صغير بما يتناسب مع طاقته في العمل.

أما مشاعر الناس تجاه أطفالهم الذين لم يتعلموا فإنه يختلف اختلافاً كلياً مما هو عليه الآن، لأن الرجل لا يعتبر كون ابنه لا يقرأ ولا يكتب مصيبة عليه أو نقصاً فيه، وإنما يعتبر ذلك أمراً طبيعياً، فبعض الناس في نظره يقرأ ويكتب وبعضهم لا يفعل ذلك وابنه من هؤلاء.

وذلك لكون الجهد الشخصي هو الذي عليه المعول في العيش، وهو مشترك بين الأمي والقارئ، غير أنهم يعتبرون الولد القارئ نعمة من الله، ويفضلونه على غيره، بل يشكرون الله على توفيقه وفضله عليهم.

وكل هذا هو بالنسبة للذكر، أما الإناث فإنهم لا يعتبرون تعليمهن أمراً ذا أهمية، وإن كانت توجد معلمات في كتاتيب خاصة للبنات تسمى الواحدة منهن (خالة) بمعنى معملة مثلما يسمى معلم الصبيان مطوع.

وبعض البنات يكون لديهن استعداد فطري للدراسة، والدراسة التي يقصدنها بالنسبة للمرأة مجرد قراءة القرآن الكريم فتنجح في ذلك.

ومن أولئك والدتي فقد دخلت مدرسة بنات عند (خالة) وتعلمت قراءة القرآن الكريم، فصارت تقرأ في المصحف يومياً في رمضان وفي بعض الأحيان خارج رمضان، إذا كانت على استعداد لذلك، وهي إلى ذلك تقرأ كتب الحديث والكتب التي ألفت بلغة فصحى قديمة.

ومن طريف المقارنة هنا أن والدتي قارئة كاتبة ووالدي أميٌّ على حين أن الشايع في بلادنا في العصور القديمة هو العكس، فوالدي قرأ على مطوع في أحد الكتاتيب من آخر القرآن صعوداً من السور القصيرة: قل أعوذ برب

الناس وما قبلها حتى سورة إنا أرسلنا نوحاً، وذلك بطريق التلقين ولا يعرف غيرها من القرآن ولا يقرأ الرسائل ولا يكتب.

رفقاء الطفولة:

رفقاء الطفولة في المدرسة (الكتَّاب) لم يبق من ذكرهم كثير شيء لأنني كنت صغيراً وقد أخرجني والدي من هذه المدرسة بعد أن ذكر المطوع أنني قد حفظت القرآن بمعنى أنني أستطيع أن أقرأ القرآن كله نظراً فهذا هو حفظ القرآن الذي يريدون به ختمه قراءة، وألحقني إلى مدرسة للوهيبي (محمد بن صالح الوهيبي) وكان قد ذهب إلى الكويت والزبير وتعلم شيئاً من طريقة تدريسهم في المدارس والكتاتيب وافتتح مدرسة في بريدة صار عليها إقبال كبير فأدخلني والدي فيها رغم كونها بعيدة عن بيتنا، إذْ هي في جنوب بريدة وبيتنا في شمالها.

ولا أرى حاجة لذكر شيء من هذه المدرسة هنا مما واجهته فيها لأن ذلك محله كتاب السيرة الذاتية- إن قدر لي أن أكتبها- وإنما أقول: إن الأخ محمد الوهيبي قد صار بعد حين مدرساً عندي في المدرسة المنصورية في بريدة التي كنت مديرها في عام ١٣٦٨هـ، وقد ذكرت تفصيل ذلك في كتاب: (ستون سنة في الوظيفة الحكومية).

والذكريات الكثيرة هي لأصدقاء الطفولة في الشارع، فقد كانت تعقد بين الأطفال صداقات حول الاشتراك ضد شخص أو أشخاص وأحياناً يكون الاشتراك من أجل الحصول على فائدة في اللعب مثل لعبة الكعاب التي يحصل الفائز فيها على المزيد من الكعاب، ولعبة (البَيَّة) في النوى.

وأذكر أن صديقي في الطفولة الذي كنت ألعب معه هو ابن جارنا (صالح بن سليمان الطرباق) والده سليمان بن علي الطرباق، وبيته ملاصق لبيتنا من جهة الغرب.

لماذا هذه الذكريات؟

لقد أكملت هذا العام بناء بيتنا الذي سبق ذكره وصار بناؤه بالأسمنت المسلح مختلفاً عن تفصيله، الأول كان مبنياً من الطين بطبيعة الحال فقد جعلته كله شققاً سكنية، خططه لهذا الغرض وأشرف على تنفيذه ابني المهندس المعماري ناصر، وأوقفت البيت على المحتاج من ذرية والدي ناصر بن عبدالرحمن العبودي الذي اشتريت البيت من تركته بعد موته كما سبق.

وقد صارت فيه أربع عشرة شقة صغيرة كل شقتين يمكن أن تصيرا شقة واحدة إذا فتح باب بينهما، وذلك عند ما يكون عدد المحتاجين السكنى ٧ فأقل، أما إذا كانوا أكثر فإنه يكفي لأربعة عشر ساكناً أي أربع عشرة أسرة لأن كل شقة مؤلفة من غرفتين وصالة ومطبخ وحمامين.

ونظراً إلى أن هذا البيت كان موضع تمييزي الأشياء، ومسرح صباي، وموطني في العيش الغرير بين أبي وأمي، فقد رأيت استعادة ذلك بأن أسكن فيه لأيام معدودة من أجل أن أستعيد تمثيل ذكرياتي القديمة، على أن أقارن بين ما عليه الحال الآن وما كانت عليه قبل ٧٥ سنة.

وذلك بالضبط عام ١٣٥٠م، بعد أن كان تم لي من العمر خمس سنين، وهي سن تمييز الأشياء الكبيرة والنظرة السطحية إليها، نظرة الطفل الصغير.

ماذا عن البيت نفسه؟

البيت لم يبق منه إلا اسمه فوق أرضه من موقعه من الزقاق، وبدا كما لو كان تغير لأن بلدية بريدة قد نزعت ملكية عدد من البيوت التي تقع أمامه أي جهة الجنوب بينها وبينه الزقاق، وجعلت أرضها ميداناً ومواقف للسيارات، وقد غرست فيها أشجار ظل حتى كان الذي يقف بسيارته يقفها في الظل في هذا الميدان الذي فيه ألعاب للأطفال، في جانب منه دورة مياه عامة لأنها بجانب مسجد ابن شريدة يستعملها من يريدون الصلاة في المسجد.

ولم يكن للمسجد عندما عقلت الأمور أي دورة للمياه، بل لم يكن الناس يعرفونها أصلاً، وإنما فيه حسو، أي بئر غير واسعة عليها دلو وفيها قرو وهو ما يشبه الإناء من الحجارة يوضع فيه الماء الذي يستخرج من البئر من أجل الوضوء، ووظيفة هذا البئر هو أن يتوضأ منها الناس للصلاة ويستعمل ماؤها من يحتاج إلى الاغتسال للتبرد في الصيف أو لغسل الجنابة.

وليس فيه مكان لقضاء الحاجة، وإنما على من يريد ذلك أن يذهب إلى الخلاء الذي كان قريباً عندما عقلت الأمور، فهو واقع خلف باب العقدة الشمالي الذي لا يبعد عن المسجد أكثر من ٢٥٠ متراً جهة الشمال، والعقدة هي السور، ولم يكن يوجد أي بناء خارج السور من جهة الشمال مطلقاً، لذلك يبول فيه الغرباء بعيداً عنه، ويقضون فيه حاجتهم.

ومن حسن حظهم أن أرضه رملية تشرب الماء أو نحوه وسافيها وهو التراب الرملي الدقيق يغطي الأشياء الأخرى ذات الحجم، وإن كان في بعض الأحيان ينبشها ويبديها للعيان إذا اشتدت الريح.

فكان من يريد قضاء حاجته يفعل ذلك في الصحراء، ثم يستجمر بما وصلت إليه يده من حجر أو مدر، وهو الطين اليابس أو تراب، ثم يذهب إلى البئر الذي في المسجد فيستنجي بالماء و يتوضأ.

أما الآن فكل شيء اختلف، بل تبدل تبدلاً جذرياً كما ترى.

ونعود إلى ذكر البيت نفسه فقد كان معداً لسكنى أسرة واحدة، وهو قسمان قسم أرضي أهم ما فيه (القبة) و(القهوة)، والمراد: أهم ما فيه من الأبنية وإلا فإن الحوش وهو الفناء المكشوف مهم جداً لأهل البيت.

فالقبة أشبه ما تكون بالقاعة التي تفتح عليها الغرف التي تسكنها الأسرة وهي مسقوفة كلها لا يرى من فيها السماء إلا من خلال فتحة من السقف تسمى (السماوة) هكذا بالنسبة إلى السماء.

وأنا أتكلم هنا على بيتنا خاصة وقد يختلف الوضع بينه وبين البيوت الأخرى اختلافاً قليلاً.

ووجود القبة هكذا مغلقة أمر مهم جداً في الشتاء لأن الذي يكون في الغرف التي تفتح على القبة لا يتعرض للبرد، إذْ في جانب من القبة كانون وهو الموقد الذي يطبخ عليه الطعام، ولكنهم يطبخون الطعام عادة في غرف المطبخ في الطابق الثاني غير أنهم إذا اشتد البرد طبخوه في هذا الموقد التماساً لتدفئة الغرف والقبة بناره، وتلافياً للصعود إلى الطابق الثاني في البرد.

والغرف المحيطة بالقبة في بيتنا هي خمس، كل واحدة منها لها اسم يميزها عن غيرها كما هي طبيعة الأشياء.

أولها جهة الشرق (غرفة طرفه) وهي الزوجة الأولى لأبي وهي ابنة عمه، وقد تزوج من والدتي والأولى معه طلباً للذرية، والثانية غرفة الجصة وكل هذه لا يسمونها غرفة وإنما يسمونها (صُفة) لأن الغرفة عندهم ما كانت في الطابق الثاني الذي فوق الأرضي.

والجصة هي مخزن التمر- كما هو معروف- وهو مبنى من الجص والحجارة يشبه المحراب الواقف له باب ضيق في أعلاه ينزل منه من يريد أخذ التمر من الجصة، إذا كان التمر بعيداً عن متناول يده، أما إذا كانت مليئة بالتمر فإنه لا حاجة إلى دخول جسم الآخذ من التمر إلى الجصة.

والتمر الذي يخزن فيها يكفي عادة لطعام الغداء لأهل البيت كلهم، لأن الغداء كان يتألف بصفة رئيسية من التمر ولا طعام غيره في الغداء، فلا يطبخون طعاماً للغداء مطلقاً، وإنما يطبخ للعشاء فقط.

والغرفة الثالثة (صفة نورة) وهي أمي، وهذه الغرفة أو الصفة خاصة بوالدتي فيها منامنا في الشتاء، وفيها صندوقها (السامان) وهو صندوق كبير يجعل مع جهاز العرس يعتبر صندوق العمر، إذْ تضع فيه المرأة ملابسها وحليها.

وليس في غرفة أمي عندما عقلت الأمور معها إلا أنا وأخي سليمان الذي صار الشيخ القاضي (سليمان العبودي) وهو آنذاك وليد إذْ ولادته كانت في عام ١٣٥٠هـ وليس معنا أحد.

ومن الطريف في هذا الأمر أن والدتي حجت أول حجة لها وكانت تظن أنها لن تحج مرة أخرى كما كان يعتقد أكثرهم، وكان حجها على الإبل مع أخيها الشقيق خالي إبراهيم بن موسى العضيب رحمه الله، وذلك في عام ١٣٥٢هـ وكان عمر أخي سليمان سنتين، ولم تفطمه أمي لأن من عادتها ألا تحمل إلا بعد سنتين أو سنتين ونصف من حملها الأول، فكان عبء فطام أخي سليمان واقعاً على والدي وعليَّ، فأنا لي سبع سنين، ووالدي صار ينام في غرفتنا كل ليلة طيلة غياب أمي في الحج الذي استمر ٤٧ يوماً، لأن حجها كان على الإبل وكنا لاقينا عنتاً من فطامه عن الرضاع.

والغرفة الرابعة (صفة الدهن) إضافة للدهن الذي كان أهلنا يضعونه فيها فهي إذاً أشبه ما تكون بالمستودع الذي توضع فيه الأطعمة والخضرات التي تخزن، ومنها البصل والقرع.

والغرفة الخامسة نسميها (المخزن الصغير) وذلك لكونها ملاصقة لمخزن القهوة من جهة الجدار وإلاَّ فإنها في القبة.

وفي القبة عمود واحد في وسطها ترتكز عليه (السواكيف) وهي الخشب الضخمة من الأثل التي يعتمد عليها خشب السقف من الجهة الواقعة في وسط القبة.

وفي القبة من جهة الشرق ملاصقة للجدار الرَّحا وهي مهمة جداً إذْ يطحن فيها القمح اللازم للعشاء يومياً لأنه لم تكن توجد أية طاحونة عامة تطحن للناس بالأجرة أو غيرها.

وعند مدخلها أي مدخل القبة من الداخل (المنظرة) وهي مرآة عامة، ثابتة مثبتة بالجدار على أطرافها بالجص، ولا تنقل أو تتحرك ويستعمله الجميع حيث يقفون أمامها إذا أرادوا أن ينظروا إلى وجوههم في المرآة.

وبجانب العمود في القبة تعلق القربة وهي الوعاء الوحيد عندنا لماء الشرب فلم تكن نعرف جرار الفخار للماء ولا غيرها.

وأرض القبة ليست مبلطة إلاّ بالطين فلم نكن نعرف البلاط مطلقاً ولا سمعنا به عندما عقلت الأمور، وإنما كان الطين يخلط بالماء وتفرش به الأرض التي يراد تبليطها به، فلا تكون أرضها ترابية ذات تراب يتطاير.

وباب قبتنا يقع في الجنوب الشرقي منها وفوقه مثلث من النوافذ الصغيرة التي تدخل الضوء والهواء إذا أغلق الباب وهي ست مطابقة لطراز النوافذ في الأبنية العريقة عندهم، فهي لا تزيد على مثلث قد كونوه بجعل لبنتين من لبن الطين تتطابقان، يجعل رأس كل واحدة منهما مستنداً إلى رأس الأخرى، أسفلها صف من النوافذ ثلاث فوقه صف كذلك من النوافذ المثلثة مطابق للأسفل إلا أنه مؤلف من نافذتين فقط فوقه صف مؤلف من نافذة واحدة، بحيث تؤلف الصفوف الثلاث من هذه النوافذ الصغيرة شكل مثلث أيضاً.

وبابها يفتح إلى الحوش مقابلاً جهة الجنوب الشرقي التي هي جهة مطلع الشمس، ولذلك عندما تشرق الشمس وترتفع قليلاً يدخل ضوءها من هذه النوافذ قبل الباب لأنها أعلى منه فيدخل في داخل القبة، وذلك في فصل الشتاء، أما في الصيف فإن الشمس لا تدخل مع هذه النوافذ، لأنها ترتفع في السماء ذاهبة شمالاً من مطلعها في الشتاء في رأي العين، وذلك أمر ظاهر ومعروف.

ويختلف دخول الشمس بعد طلوعها من نافذة لأخرى تبعاً لحركة الشمس في رأي العين، ولذلك صار عند أهل بيتنا اصطلاح بأن الشمس إذا طلعت مع النافذة اليسرى، بالنسبة إلى جهة الشمس سموها (شمس العصيد) و(العصيد) هو عصيد الذرة الذي لابد من أن يوضع معه (محزرة) قليلة، لتجعله يتماسك ويغلظ قوامه، ولا يكون مع العصيد شيء من اللحم أو الإدام الآخر، إلا أنه لابد فيه من أن يدهن بالزبد أو السمن وأن تغرس على وجهه تمر من التمر الصلب كتمر السكري.

فيأكل الناس العصيدة حارة في الصباح كما يأكلون الآن طعام الإفطار إلا أنهم يشبعون منها لذلك تعتبر فطوراً وغداء لهم، لا يأكل الإنسان بعدها إلاّ وجبة العشاء بعد صلاة العصر أو قبيل صلاة المغرب.

وكمال العصيدة أن يشرب فوقها اللبن المخيض، ولذلك تعتبر من طعام الأثرياء والموسرين في أول الشتاء.

وتلي شمس العصيد (شمس الحنيني) الذي يؤكل إذا استحكم البرد في فصل الشتاء، وهو مؤلف من التمر الذي يستبعد نواه أي يخلط بقوة باليد ثم يضاف إليه القرصان وهي أقراص رقيقة جداً، تكاد من رقتها تكون شفافة إذا كانت من المعية، وهي نوع من القمح جيد، ويخلط التمر والقرصان خلطاً جيداً بأيدي النساء، ثم يوضع في أناء كالصحن المقعر فوق الجمر ويضاف إليه مقدار كثير من الزبد، ويعصر فوقه حامض الأترج، ثم يؤكل وهو حار موضوعاً على النار.

والحنيني من الطعام النفيس الذي لا يقدر عليه إلاّ الأثرياء، ولذلك قالوا في أمثالهم (الحنيني يملّ) يقال في الملال من الشيء المحبوب، يراد أن الحنيني – على نفاسته وطيب طعمه- إذا استدام الإنسان أكله لمدة طويلة مله وبحث عن غيره.

ويؤكل كذلك مع طلوع الشمس فيكفي عن وجبة الغداء.

والشمس الأخيرة التي تطلع بعد الشمسين السابقتين يسمونها (شمس القشد) لأن القشد يؤكل في الربيع وهو تمر تؤخذ منه أقماعه ثم يضاف إلى دقيق من دقيق القمح يكون قد وضع عليه زبد أو سمن حتى ينضج ثم يضاف إليه التمر ويخلط فيه مع بقاء حجم التمر على ما كان عليه ويؤكل.

وهذا أيضاً يؤكل بعد ارتفاع الشمس في أول النهار.

وجميع أبواب البيت وغرفه وخشب السقوف هي من خشب الأثل الذي ينمو في بلادهم ولا يستوردون لذلك شيئاً من الخارج.

القهوة:

القهوة هي غرفة الاستقبال للرجال يستقبل فيها صاحب البيت ضيوفه ويقدم فيها لهم القهوة، ومن هنا سميت بهذا الاسم بمعنى مكان تقديم القهوة، ويقدم فيها أيضاً الطعام لضيوفه وينام فيها أيضاً ضيوفه، لأنه لابد من أن يحجزها حاجز عن أماكن النساء، وفي بيتنا هذا هي منعزلة تماماً لا يصلها بالبيت إلا مدخل بعيد عنها فيه مغلاق مما يلي قسم النساء.

والقهوة هي في الحقيقة قاعة الجلوس، ومكان الحديث المهم بينهم، ولنا عادات فيها غريبة لا يعرفها أهل هذا الزمان منها أنها تكون مفروشة بسجاد أو بسط من الصوف غليظة تفرش فوق بواري- جمع بارية- وتسمى (بواري الحسا) لأنها تنسج من القصب في الأحساء، وتجلب إلى بلادنا منها، وقد يفرش السجاد والبسط فوق حصر منسوجة من خوص النخل، وهذه تصنع في بلادهم، وتمام فراش القهوة أن يكون في أصول حيطانها لزاق هي أشبه بالطراحات تجعل في أسفل حيطان القهوة على ارتفاع متر أو نحوه، وتثبت في الجدار بعرى من القماش يدق في داخل مسامير.

والغرض منها هي وقاية الجالس مما قد يكون في الجدار من غبار أو حتى مما قد يصيبه من برده في الشتاء، وسميت (لِزَّاقة) لأنها تكون لاصقة بالجدار عن طريق تثبيت أعلاها بمسامير، فكأنها لازقة به.

وبعضهم يجعل عوضاً عنها دراويش- جمع درويشيه- على صيغة النسبة إلى درويش، ولا أدري أصل ذلك، وهذه تكون أقصر منها وإنما تكون كالمساند يسند الجالس في القهوة ظهره إليها، وهي غير المراكي- جمع مركى- التي تكون بجانب الجالس يضع مرفقه عليها أو يده لتستند عليها.

ولابد أن تكون القهوة عالية السقف ففي بيتنا قهوة والدي على ارتفاع طابقين عاليين بالفعل لأن في جانب قهوتنا مخزناً وهي الغرفة التي تكون عادة مخصصة لرب البيت لا يدخلها النساء، ولا ينام فيها، وإنما يخزن فيها الأشياء الثمينة من النقود ونحوها، وفوق المخزن من بيتنا (المصباح) وهو عالي السقف، ومع ذلك سقفه وهو يقع فوق المخزن هو سقف القهوة.

وقد بنوها كذلك حتى يرتفع الدخان عن الجالسين فيها ويخرج مع الفرج — جمع فرجة- وهي نوافذ عالية فيها، لئلا يتأذى به الجالسون في القهوة لأن القهوة لابد من أن توقد فيها النار لصنع القهوة للضيوف أو لتدفئتهم في الشتاء.

ولابد لغرفة القهوة من (الدكة) وهي كالغرفة الصغيرة تكون خلف الوجار الذي يجلس فيه من يصنع القهوة وهي مخصصة لوضع الحطب الجزل فيها، وكلما كان الحطب الذي فيها أغلظ وأكبر وأكثر كان قدر صاحب البيت أكبر في النفوس، وفي بيتنا دكة يملأها والدي بالحطب، وبخاصة عندما يقبل الشتاء.

وكنت إذا بدأ ينفد الحطب منها أدخل فيها وأقربه من بابها حتى يستطيع والدي أن يتناول الحطب منها وهو جالس لصنع القهوة.

الوجار:

أهم ما في القهوة بالنسبة للجالسين فيها وزوارهم هو (الوجار) وهو موضع إيقاد النار التي تسوى بها القهوة أي تصنع ومكان وضع دلال القهوة- جمع دلة- وهي الأباريق التي تصنع فيها القهوة أو تقدم بها إلى الزوار.

وكلما كانت (الدلال) كثيرة ونظيفة ومربوبة أي مطلية بالقصدير الأبيض كان ذلك أدل على وجاهة الرجل وعلو منزلته عند ضيوفه، بل وعند أهله، لأن القهوة هي مشروبهم الوحيد قبل أن يعرفوا شرب الشاي بصفة منتظمة في نحو العقد السادس من القرن الرابع عشر، وإن كانوا يعرفونه قبل ذلك قليلاً يقدم في المناسبات المهمة مثل حفلات العرس، وأوقات قيام الليل من العشر الأواخر من رمضان، إذْ يقوم بعض الأثرياء بتقديم الشاي والقهوة للمتهجدين لكي يساعدهم ذلك على طرد النعاس فيقوون على المزيد من العبادة.

وللوجار ووضع دلال القهوة فيه ترتيبات وآداب كثيرة لا يتسع المجال لذكرها مفصلة هنا، ولكن في نهاية الوجار في (قهوتنا) وهي غرفة القهوة (ركزة) وهي كالصحن المربع الصغير من الحديد موضوعاً فوق قضيب مربع من الحديد مغروز في أرض الوجار على ارتفاع نحو المتر، مهمته مهمة السراج قبل اختراع الاستصباح بالغاز، أو قل: قبل أن تصل إليهم عادة الاستصباح بالغاز يضعون في هذه الركزة شيئاً من الودك وهو الدهن الذي يخرج من الشحم إذا أذيب ويضعون فيه فتيلة وهي خرقة مفتولة كالخيط توقد النار في طرفها وتستمد قوتها من الودك الموضوع في الصحن الذي على الركزة، فهي كانت السراج الذي كانوا يستعملونه في الزمن القديم، وقد أخبرني والدي رحمه الله أن أباه هو الذي وضع هذه الركزة عندما بنى بيته هذا عام ١٣١٣هـ.

وقد هجرت الركزة لأن الودك كثير الدخان وهو مكلف، وقد أدركت أنا نفسي بعض المساجد في القرى التي لا يكون عند أهلها سراج يوقد بالغاز وهو يستصبحون عند أداء صلاة العشاء والفجر في الشتاء بالودك فرأيت أن دخان الودك يكون كثيفاً إلى درجة أنه يعكر جو المسجد، ولكنهم كانوا يستعملونه لأن بعض أهل الخير يوصون من وصاياهم بودك لسراج المسجد، ولا يجدون غيره مجاناً في ذلك الوقت.

وقد استعاض والدي قبل ولادتي بزمن بسراج الغاز عن الودك، فكان يضع السراج في الركزة مكان وضع الودك والسراج علبة من الصفيح صغيرة يوضع فيها القاز ويوصل بفتيلة من القماش يوقد في طرفها نار فتضيء المكان مستمدة طاقتها من القاز.

ويسمى هذا السراج (سراج التنك) لأنه من التنك وهو الصفيح، وعندنا في البيت أكثر من سراج تنك، وعند والدي سراج كبير (فنر) ولكنه لا يستعمله لأغراض البيت وإنما يستعمل في الاجتماعات المهمة كالزواج، وكان بعض الناس يستعيرونه لهذا الغرض إلا أن زجاجته انكسرت ولم يجد والدي غيرها أو لم يرد أن يشتري غيرها فتعطل تماماً.

أما (سراج التنك) فإنه متعب جداً في الانتقال به خارج الغرفة لأن أي حركة من الريح حتى لو كانت نسمة خفيفة تطفئه.

وفي القهوة بجانب الذي يسوي القهوة غير بعيدة من الوجار (النقيرة) وهي صخرة من الحجر الأحمر النقي الذي يشبه المرو، قد نقرت فيها نقرة أي حفرة صغيرة توضع فيها القهوة بعد أن تحمس فتدق فيها بعمود النقيرة، وهو عمود المرو الأسود الأصم طوله ثلثا متر تقريباً، ولابد أن يكون من المرو، وأن يكون مقطوعاً بمعنى أنه منحوت من صخرة من المرو صافية حتى يضمن ألا ينكسر منه شيء عند الدق.

وفي قهوتنا أيضاً فوق النقيرة (بيت القهوة) وهو أشبه بالخزانة الصغيرة منحوتاً في الجدار عليه باب من الخشب، خشب الأثل، من صنع محلي وهو منقوش ويغلق على الهيل والقهوة.

ونعود إلى فراش القهوة التي هي غرفة القهوة أو غرفة الاستقبال للرجال فنقول: إن فراشها يكون كما وصفته في الشتاء، أما في الصيف فإن الأمر يختلف، إذْ ما أن يبدأ الحر حتى يرفع فراش القهوة وتنظف أرضها وترش ثم يأتي الذين يحملون الرمل على الحمير برمل جديد نظيف فتغسل أرضها أولاً ثم يبسط ذلك الرمل بمعنى يفرش فيها، فيتحول فراشها من سجاد أو بسط إلى رمل أحمر.

حتى إذا ما أقبل البرد أبعدنا ذلك الرمل ونظفنا القهوة ثم أعدنا فرشها بالسجاد والبسط، وأحياناً يجمع بينهما بمعنى أن بعض القهوة يكون مفروشاً بالسجاد وبعضها بالبسط- جمع بساط- هكذا كان الأمر في قهوتنا.

وقبل القهوة مما يلي الشارع (الليوان) وهو رواق محيط بفتحة أي بفناء مكشوف ضيق، إذْ الرواق لا يشمل إلا ثلاث جهات، والرواق هو السقف الذي يكون على عمد، ويكون مفتوحاً من إحدى الجهات.

وهذا الليوان يسبقه (الدهريق) وهو ممر يدخل إليه من باب القهوة الواقع على الشارع، وقد يسمى باب الرجال، والمراد به الباب الذي يدخل منه الرجال إلى البيت، فيذهبون إلى القهوة إذْ بيتنا له بابان، أحدهما (باب المراح) أو (باب الحوش) وتدخل منه النساء والأطفال والرجال من أهل البيت، والثاني: باب القهوة الذي ذكرته، والمراد بالبابين هنا اللذان يقعان على الشارع، ويدخل منهما إلى البيت.

وباب الحوش أكبر من باب القهوة لأنه يدخل منه الأشياء الخشنة الكبيرة الحجم كالحطب والعشب للمواشي، وفي بيتنا ما يزيد على البيوت

الأخرى، وهو أنه يدخل منه خشب (العُشر) وأغصانه، والعشر شجر بري، يأتي إلى والدي لتجعله زوجته الأولى (طرفه) فحماً يحتاج إليه في صناعة البارود الذي سيأتي الكلام عليه، ولا يستطيع أحد صناعته على نطاق تجاري في بريدة إلا أسرتنا (أسرة العبودي).

وكثيراً ما تدخل من باب الحوش الحمير والمواشي الأخرى، إذا كان صاحب البيت يقتنيها، ونحن ليس عندنا حمار، ولكن والدنا يحب المعزى فلديه عدد منها إلى أن مات.

وأذكر أن واحدة منها كانت نساؤنا يسمينها الصبحا لأن في جبهتها (صُبحَه) وهي البياض، وقد سميت بذلك لأن عند والدي عدداً من المعزى، ولا بد من إيجاد اسم لكل واحدة منها حتى تعرف به.

وهو يتخذ المعزى للحليب واللبن، فالحليب من أجل شربه حاراً مغلياً، واللبن يمخض بالشتاء ويستخرج زبده، ثم يشرب مخيضاً.

وبعد أن توفي والدي في عام ١٣٧٠هـ رحمه الله بعنا الغنم لأنها تركة له واتخذت أنا بقرة حلوباً.

ولكن لم تشعر النسوة مرةً إلا بالعنز الصبحا تدخل بيتنا بعد عدد من الأيام، وهي تثغي أي تصوت، فقالت النسوة، إنها ذكرت والدنا واشتاقت إلى بيتنا رغم مضي مدة على خروجها منه، وبكين.

ويستعمل (الليوان) بمثابة المتنفس للقهوة ويدخل إليه الضيف من الدهريق الذي هو الممر الضيق القصير، فإذا كان عدد الضيوف الذين يجلسون في القهوة كبيراً كالذين يجتمعون في المناسبات جلس بعضهم في الليوان، ولا يجلس منهم في الليوان إلا من كانوا أقل أقداراً من غيرهم، وإنما ذووا الأقدار منهم يجلسون في القهوة حتى وإن جاءوا متأخرين، فإن الجالسين

في القهوة ممن هم أصغر سناً وقدراً، يتركون مجالسهم في القهوة لهم، وينصرفون للجلوس في الليوان.

أول حادثة أتذكرها:

وقد شهد (ليوان) بيتنا أول حادثة كنت أذكرها جيداً وأنا صغير، رغم كونها موغلة في القدم وهي يوم (طَهَّرني) والدي، أي جاء بالخاتن ليختنني، والذي ختنني رجل معروف وله أولاد كثر الآن، وكان يذّكرني بعد أن كبرت وتوظفت بقوله: أنا طَهَّرتك- يا محمد- ، فأقول له: إنني أذكر ذلك، وهل ينسى الإنسان من قطع منه لحمة؟

طلب الخاتن من والدي أن يحضر طاسة من النحاس كبيرة، فَقَلَبها وأجلسني عليها، وطلب منه أي من والدي أن يمسك بي لئلا أتحرك فيكون في ذلك خطر من أن يمس طرف الموسى عن غير قصد حشفة الذكر.

وقد ختنني بالموسى الذي يحلق به الناس ، لأنه حلاق أيضاً، ولكنه ليس له دكان، وإنما كان يجلس قرب السوق في أحد مفارق الطرق لحلق شعور الناس.

عندما جلست على هذه الطاسة النحاسية التي هي كبيرة نسبياً كان أهلي ألبسوني ثوباً مشقوقاً من الأمام تماماً، وذلك من أجل ألا يمس الثوب مكان الختان الذي هو جرح أو كالجرح البالغ.

وقد أدخل الخاتن قلفة ذكري فيما يشبه الحلقة القوية من الجلد، ومعه القلفة، حتى يحجز هذه الحلقة التي هي رقعة مستديرة الشكل في و سطها خرق، يقصد منها أن تحجز القلفة خلفها فتحميها من الموسى، والقلفة هي غطاء رأس الذكر قبل الختان.

ولا أدري السبب الذي جعلني أذكر واقعة ختاني دون غيرها من أشياء حدثت في هذه السن المبكرة، فقد سألت والدي عن سني عندما (طهَّروني)

فذكر أنها الثالثة أو تنقص شهرين أو ثلاثة، ولكون الختان أول عملية مؤلمة، ومن فضل الله عليَّ أنها أول عملية في جسمي وآخر عملية ولله الحمد من ذلك الحين قبل نحو خمس وسبعين سنة وحتى الآن، فقد عافاني الله من الأمراض التي تحتاج إلى عملية بفضله وكرمه ولله الحمد والشكر على ذلك.

ولكن ختاني كان مهماً في بيتنا، فأنا أول ابن لوالدي يصل إلى سن الختان ويختنه، وكان يقول ويكرر لمن يحدثه في المناسبات: محمد أول ولد لي أطهره أي إن جميع أبنائه من غير والدتي وكان تزوج قبلها بثلاث نساء لم يعش له منهن ولد ذكر قبلي، أي لم يصل عمر الولد الذكر قبلي من نسله إلى سن ثلاث سنين.

إلاَّ أن والدي قد طَهَّر أي ختن ابنين له من أمي بعدي، وهما شقيقاي: سليمان وعبدالكريم.

وأنا أيضاً أول ولد يختن لوالدتي ولكنها ليست كبيرة السن في ذلك الوقت فوالدي كان في سن السادسة والخمسين لأنه ولد في عام ١٢٩٢هـ ووالدتي كانت في سن السادسة والثلاثين لأنها ولدت في عام ١٣٢٠هـ.

وكان موضع الطهار أو الختان لي في هذا الليوان.

والأهل بنجد عادة لا يختنون الأطفال إلاَّ في أول فصل الصيف، وعللوا ذلك بأنه وقت شباب البسر، والشباب هنا يراد به النمو أي أنه وقت نمو البسر ونضجه في قنوان النخلة، فكأنهم نظروا إلى أن اللحم ينبغي أن ينمو لكي يغطي مكان الجرح المختون من ذكر الصبي كما ينمو البسر في النخلة، ولا شك في أن هذا غير صحيح، وإنما اتخذوا هذه العادة لشيء آخر وهو أن الجرح في الجسد يشفى ويطيب في الحر أسرع وأفضل مما إذا كان ذلك في البرد،

وهذا راجع إلى جريان الدم في العروق والشعيرات الدقيقة في الحر أكثر من البرد ، مما يساعد على سرعة التئام الجرح.

ولم تكن لديهم أية احتياطات لشفاء الجرح، إلا أنهم علقوا في رقبتين (فروكاً) وهو نوع من الطيب مؤلف من عدة أطياب كانت النساء يتطيبن به ، يضعن منه على شعورهن، وذلك من أجل ألا يستشم الجرح، ويستشم معناه يصيبه الشمم، والشمم يحدث عندهم كما يعتقدون من كون الجرح يشم رائحة طيب فيؤثر ذلك على برء الجرح، بل إنه يلتهب، وإن لم يعرفوا لفظة الالتهاب ولم يستعملوها.

ولا شك في أن ذلك يرجع في الأصل إلى ما يسببه الطب حساسية لبعض الأشخاص فعمموا ذلك على الجميع مثلما كانوا يفعلون في تجبير كسور العظام التي تحدث في الأرجل والأيدي حيث يمنع (المجبِّر) بتشديد الباء وكسرها الشخص الكسير الذي يجبر كسره لكي يعود عظمه إلى ما كان عليه بأن يمنع عنه أكل التمر مطلقاً حتى ولا تمرة مرة طيلة مدة العلاج التي تستغرق في المتوسط مدة شهر.

وهذا ناجم عن تجاربهم في علاج من لديه مرض السكر، إذْ يلاحظون أن أكل التمر يفسد الجرح وبالتالي يمنع من التئام الجرح، وجير الكسر.

فعمموا ذلك على من لديه مرض السكر ومن هو خالٍ منه.

على أن للأمر وجهاً طبياً آخر وهو أن الإنسان إذا أسرف في أكل السكريات ولو لم يكن مصاباً بداء السكري فإن الجرح لا يلتئم.

وكانوا يضعون شيئاً من الرماد المنخول على مكان الختان، وهذا فيه فائدة كبيرة فهو يمتص الرطوبة الناتجة عن تدفق الدم، وهو أيضاً يوقف النزيف كما هو المجرب عندهم في خلع الضرس، إذْ يضعون في مكان

الضرس المخلوع رماداً مخلوطاً بملح فيطهر مكان الخلع، ويوقف خروج الدم منه.

ولم يكن لدى الخاتن بنج أو أي مخدر يمنع من الشعور بالألم.

ومع ذلك لا أذكر الألم نفسه الذي أصابني من الختان، ربما كان السبب في ذلك صغر سني وإنما أذكر العملية كلها.

مأدبة الختان:

لا أذكر وأنا في تلك السن ما صاحب عملية الختان هذه من أكل أو شرب ولكنني أذكر بكل وضوح ختان شقيقي سليمان- الذي صار بعد ذلك الشيخ سليمان العبودي عضو محكمة بريدة- فقد اقتصرت المآدبة على خبز من خبز الخمير صنعته زوجة والدي وتكاد تكون مختصة بصنعه في بيتنا، وقد دهنوه بالزبد ومعه قدموا للذين حضروا الختان التمر واللبن بعد القهوة والشاي.

وعدد الذين حضروا كان قليلاً اقتصر على أقرب الأقارب وأدنى الجيران، وهذه عادة لهم تكاد تكون عامة ألا يحتفوا بالختان كثيراً.

مخزن القهوة:

في جانب قهوتنا غرفة خاصة يدخل إليها من القهوة تسمى (المخزن) وهي خاصة بوالدي معه مفتاحها، وطالما سمعته يقول: هاتوا مفتاح المخزن، أو (وين مفتاح المخزن)؟

ويكون في هذا المخزن النقود والأوراق الثمينة، مثل صكوك المبايعات والوصايا والأوقاف.

وأذكر أن والدي رحمه الله كانت لديه أوراق من هذا النوع، ليست لنا ولكن أهلها كانوا أودعوها إياه لحفظها، لأن كثيراً من الناس لا تكون لديهم أدوات لحفظ مثل هذه الأوراق المهمة.

وهناك أمر مهم آخر وهو أن كثيراً منهم كانوا يسافرون في طلب الرزق ويغامرون بحياتهم لهذا السبب، لذلك يخشون على الأوراق المهمة من الضياع أو من التلف على أيدي من لا يقدرونها قدرها من نسائهم وأطفالهم.

ونعود إلى (الليوان) في بيتنا فنقول: إن فيه درجة تصعد إلى سطح الليوان تسمى درجة الليوان، وسطح الليوان لا يتصل بالبيت، بل هو منقطع منه، وليس فيه إلا روشن وهو الغرفة تكون في السطح أي تفتح على السطح وهو (روشن) صغير كان والدي بناه من أجل زواج بناته، وإن كان الزواج لا يكون إلا متباعداً، لذا لا يستعمل، بل هو مهجور يظل مغلقاً أكثر الوقت.

ومع أن والدي له أصدقاء من أهل القرى يأتون إليه ويبيتون عندنا في البيت فإنه لا يجعل أحداً منهم ينام في غير القهوة، أي غرفة القهوة التي ذكرت بمثابة قاعة الجلوس، فجميع ضيوفه ينامون فيها إلا إذا كان الحر بالغاً فإن الضيف ينام في سطح الليوان الذي هو منقطع عن البيت، ولا تدخل نساؤنا إلى هذا المكان في غياب الضيف- مثلاً- وإنما هو يحمل منامه أي فراشه إلى سطح الليوان ثم يعيده إلى القهوة بعد صلاة الفجر.

الحوش:

الحوش أو الفناء المكشوف مهم جداً لأهل البيت، ففيه مرافق عديدة مما هو معروف ومستعمل في ذلك الزمن، ففيه مرابط الغنم أكثر السنة، إلا إذا استحكم البرد في الشتاء فإن والدي يأمر بإدخالها- أي الغنم- وهي هنا الماعز وليست الشياه إلى القبة.

وفيه (الحسو) وهو بئر ضيقة مطوية بالحجارة لأن بيتنا يقع في الأصل في منطقة رملية لابد أن يحفر من يريد أن يحفر له بئراً لمسافة حتى يصل إلى (العزى) وهو الأرض الصلبة التي يمكن أن ترتكز عليها الحصى الثقال التي يطوى بها البئر.

وماء الحسو أو البئر مهم جداً لأن كل حاجات البيت من الماء يأخذونها منه ما عدا ماء الشفة وهو الماء العذب، فإنه يأتي من خارج البيت، ولكن ماء الشرب والطبخ قليل الاستهلاك إلاّ في الصيف.

والذي يحضر ماء الشرب لنا رجل يسمونه (الروَّاي) له حمير يضع عليها القرب ملئية بالماء ويفرقها على البيوت.

وأذكر أن الذي ظل يمون بيتنا بالماء لسنوات طويلة رجل يسمى (القطبشي) كان أعمى، لذا يصحب معه أحد أبنائه ولديه عدة أبناء، والذي يصحبه هو صغير لا تحتجب عنه النساء، فإذا كبر أخذ من هو أصغر منه.

وذلك مفيد في كونه يدخل البيت ليضع قربة الماء التي يأخذها من ظهر الحمار ويحملها على ظهره إلى داخل البيت بعد أن يطرق الباب، وينبه من يكونون في البيت يرشده ابنه الصغير إلى مكان تعليق القربة، وبعده صارت تأتينا (روَّاية) وهي امرأة سوداء تسمى (حمامة) ولا أدري أهذا اسم لها أو لقب.

وماء البئر أيضاً مهم لسقي النخل فقد كان في بيتنا نخلتان يعتني بهما والدي إحداهما سكرية وهي عجيبة يعرف والدي تاريخ غرسها بالضبط، وأن والده هو الذي أحضرها من الرفيعة وكانت حائطاً من النخل لحسن بن مهنا أمير بريدة فيه قليب تسني عليه السواني من جهتين، ولا ينقص ماؤها لكثرته وهي التي صارت الآن حياً من أحياء بريدة الشرقية القديمة يسمى (الرفيعة).

وكان غرسه السكرية في عام ١٣٠٧هـ، وقد استمرت حية حتى هجرنا البيت، وانتقلت عنه إلى بيت لي في النفود الشرقي لبريدة الذي يقع إلى الشمال من المعهد العلمي كنت حصلت على أرضه إقطاعاً أي بالمجان من الأمير عبدالله بن فيصل الفرحان أمير بريدة وما يتبعها من القصيم، وذلك في عام ١٣٧٩هـ.

فبقيت السكرية حتى بعد أن هجرنا هذا البيت وسقط بعض منازله لأنه من الطين الذي لا يرجى إصلاحه، وأهملناه.

وأخبرني أخي الشيخ سليمان العبودي بعد أن انتقل عملي إلى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عام ١٣٨٠هـ أن (فلان بن عثيم) قال له: إن السكرية توقر، ولا يستغلها أحد ويريد منه أن يأذن له بتلقيحها وأخذ تمرها فوافق أخي سليمان على ذلك.

وقد ماتت هذه السكرية حرقاً على يد أحد المستهترين أو المهملين، وذلك أنه أوقد النار في قمامة حولها فكانت كبيرة فأكلتها وأحرقتها وماتت جمارتها، وإن كان بقي نبعها وهو الجزء الواقف الخشن من النخلة.

وكان موتها حرقاً في عام ١٣٠٦هـ بعد أن عاشت مائة سنة إلا سنة واحدة، وقد حزنا على موتها مع ما أعطانا الله من الغنى، وما عوضنا عنها بعشرات من النخل السكري وغيرها في بساتيننا في العكبرشة، حيث كان لكل واحد منا أنا وشقيقاي سليمان وعبدالكريم بستان من النخل مزدهر فيها، وبيت له سكنه وقد بنيت في بستاني بيتاً مسلحاً لي، وكذلك جعلت بيتاً للفلاح الذي يقوم على البستان لأنني غائب عنه.

وفي بستاني عشرات النخل السكري، ولكن تلك السكرية الوحيدة في بيتنا هذا القديم كانت عزيزة عليَّ ليس لكون الذي غرسها جدي والذي اعتنى بها والدي بعده، وإنما لكوننا طالما أكلنا من جناها البالغ الحلاوة ما كنت أعجب له وما كان والدي يعجب له قبلي، ويذكر لنا ذلك.

وذلك أن ماء الحسو أو البئر في بيتنا كان في أول أمره عذباً ثم صار يتحول إلى ماء ملح حتى غلبت عليه الملوحة تماماً فصار ملحاً أجاجاً، يقول والدي: العجيب أن ماء الحسو صار ملحاً ولكن طعم تمر السكرية لم يتغير فبقي على حلاوته، أو ربما صار أكثر حلاوة مما كان عليه من قبل.

أما كون ماء الحسو انقلب إلى ماءٍ ملح بعد أن كان عذباً، فإن والدي كان يقول: (ماء الشمال مثل ولد العبدة: أول ما يولد فيه بياض وبعد فترة ينقلب كله إلى سواد) أي إن الماء الذي يكون في آبار شمال بريدة مثل ولد الأمة السوداء يكون في أطرافه بياض عند ولادته ما يلبث أن يذهب بعد فترة.

وقد سجل الشعر كون ماء بيتنا عذباً في أول أمره، إذْ أصبح النسوة من أهل البيوت القريبة يأتين لأخذ الماء منه لبيوتهن، وليس من المروءة أن يمنع أهل البيت من تريد من النساء أن تأخذ من بئره ماءً، فقال شاعر من أهل بريدة اسمه عويدات المرداسي أو أن (عويدات) هو لقب له لا أدري ولكنني لم أسمع باسمه إلا (عويدات) قال شعراً يذكر فيه هذا وهو يقصد جدي عبدالرحمن العبودي الذي حفر البئر:

يا كبر حظك يا ولد العبودي   يوم أن حسوك طلع حُلْوٍ شرابه

ينصاه من الصيد المها والعنود   ....

ولا أعرف الشطر الثاني لأنني كنت سمعت البيتين اللذين يدلان على أنهما من قصيدة، ولم أحفل بكتابتهما ولا أتذكرهما في ذلك الوقت، والبيتان يظهر لي أن فيهما تحريفاً.

ومعنى الشعر: أنك – يا العبودي- حظك كبير لأن بئرك ماؤها عذب فتأتي إليه المليحات يأخذن من مائه فتستطيع أن تراهن.

قال والدي: ووالدي عبدالرحمن العبودي شاعر مثل عويدات المرداسي، ولكنه لم يرد عليهَ شعراً لأنه استفظع ما جاء فيه من كونه ينظر إلى نساء الجيران اللاتي يأتين لأخذ الماء العذب الذي في بيته، لذلك غضب غضباً شديداً، حينما سار البيتان في الناس.

وقال: حسبي الله عليك يا عويدات، والله ما كان هذا في بالي ولا هوب طبعي.

ولكن الزمن تكفل بإيقاف ذلك حينما انقلب ماء البئر بعد سنوات من عذب إلى ملح، وصار لا ينفع للشرب.

و(عويدات) هذا (أستاد طين) أي معلم بناء كان مشهوراً في وقته ولكن شعره ضاع كما ضاع شعر معاصريه، وقد ذكرته في معجم (أسر القصيم) عند ذكر أسرة (المرداسي) واسمها بألف بعد الدال وليست (المردسي) بدون ألف فتلك أسرة أخرى لا تربطها بالأولى رابطة نسب.

والحسو هذه ماؤها ثابت تقريباً إلا أنه كان يقل في آخر القيظ في آخر شهر يوليو وتلك عادة أكثر الآبار عندهم، ولذلك جاء في المثل من أمثال الأنواء والنجوم (بين سهيل والمرزم، نجم يبس غزير الجمّ) والنجم هنا هو النوء، واحد الأنواء الذي مدته ١٣ يوماً وهو نجم الكليبين فهو الذي يقع بعد المرزم وقبل سهيل، وفي ذلك النجم تحتاج بعض الآبار إلى أن تعمق قليلاً بأن يخرج شيء من ترابها ولو قليلاً ثم يعود الماء فيها إلى ما كان عليه بعد طلوع سهيل.

حدثني والدي رحمه الله قال: كان عند والدي صبيٌ بمعنى عامل أجير طول الوقت لقبه (غُرَيِّب) على لفظ تصغير غريب، أمره والدي بأن ينزل إلى قاع الحسو ليحفرها قليلاً، وداعيه بقوله بعد أن وصل إلى الماء: يا غريِّب، ترى ماء الحسو اللي على اليمنى أحلى من ماه اللي على اليسرى.

وهذه العبارة موهمة لأن بعض الآبار يكون ماؤها جارياً من جهة من الجهات، وبعضها مثل بئرنا هذا يتحلب من الأرض أي ينبع منها.

قال: فأخذ غريِّب هذا يتذوق الماء، وقال جاداً: غربي الحسو ماه أحلى من شرقيه.

وللحسو عندنا أثر عظيم في المأثورات الشعبية بقيت في نفوسنا حتى كبرنا، وذلك لخطره على الأطفال، فكانت النساء تخترع شخصيات خرافية تخوف بها الأطفال من الاقتراب من البئر، لأن معنى اقتراب الطفل من البئر تعرضه للسقوط فيها ثم موته.

ومن تلك الشخصيات شخصية (الدَّفَّاع) يقلن لنا: إبعدوا عن الحسو لا يجيكم (الدَّفَّاع) يجدعكم به.

وشخصية (عبيد القاعة) وعبيد تصغير عبد، والعبد هو الشخص الأسود يقولون: إن في قاعة البئر عبداً أسود يقبض على من يقع في البئر من الأطفال ويوحشهم ويضربهم.

وتقول النساء في الوعيد والتهديد لأطفالهن: والله إن فعلت كذا مثل أن ما سكتّ أني لأدودلك بالحسو، ومعنى الدودلة في الحسو: أن يمسك الشخص الكبير الطفل بيده ويدليه في البئر من فوق وهو ممسك به يريه أنه إذا خالفه يتركه ينفلت من يده ويقع في البئر، يخوفه بذلك.

وقد رأينا أناساً يفعلون بالطفل ذلك، ومنه ما حدثني به عبدالله بن ناصر السيف الملقب الملا، قال: كنت وأنا جذع أذهب أنا وحمد الصقعبي الملقب (حُمِده) وهو شخصية مشهورة، كتبت عنها كتاباً عنوانه (أخبار حمد الصقعبي) وهو كتاب أنجزته وجهزته للطبع منذ سنوات ولكنني لم أطبعه حتى الآن لما فيه من أخبار الفتك والإقدام على أشياء لا يجوز فعلها.

قال الملا: فكنا نذهب إلى المسجد في وقت تفريخ العصافير فيقف حمد الصقعبي لأنه أكبر مني سناً وأتسلق على كتفيه قبل أن ينهض ثم ينهض بي حتى يقف فاصل إلى المكان الذي فيه فراخ العصافير في سقف المسجد تحت الخشب، فنأخذ فراخ العصافير نذبحها ونشويها، كما يفعل الأطفال.

قال: وكنا نفعل ذلك خلسة في المسجد، لأن الناس لا يتسامحون مع من يؤذي فراخ العصافير يخافون من أن يعاقبهم الله على ذلك، ومؤذن المسجد أكثرهم تأذياً من ذلك لأن العش الذي تكون فيه العصافير يسقط أو بعضه على أرض المسجد فيلوثها و تحتاج إلى تنظيف.

قال: ومرة كنا نفعل ذلك، وإذا بمؤذن مسجد (أبوعلطا) الذي صار يسمى بعد ذلك مسجد ربيشه، بقرب حيالة ربيشه، نسبة إلى أرض هناك للربيش، ويقع في الجنوب الغربي من بريدة القديمة، و إذا بالمؤذن يدخل ونحن كذلك وأنا واقف على كتفي حمد الصقعبي فلما رأى حمد المؤذن هرب حمد وتركني، ولولا أنني تمسكت بخشبة من خشب السقف لسقطت على الأرض، وآذاني ذلك، لذلك اضطررت أن أبقى حتى أمسك بي المؤذن وأنزلني إلى الأرض، وقال: والله لأدودلك في الحسو حتى إنك تتوب ما تأخذ هالفراخه المساكين وتفجع أمهاتهن.

قال: ثم أخذني إلى حسو المسجد وهو البئر الذي يتوضأ منه الناس وأمسك بي وصار يدليني في وسط البئر وأنا أصرخ أخاف أن أسقط فيه وهو ممسك بي يقول: خلك تتكل ما تسوي كذا مرة ثانية.

قال: وقد استرخت يده رغماً عنه، فسقطت في البئر ولم أحس بشيء لأنني سقطت على ماء البئر إلا بشجة من حصاة في جبهتي بقي أثرها فيها حتى الآن- يقصد عندما حدثني- وكان عمره آنذاك قد تجاوز ثمانين سنة.

لذلك كنا ونحن أطفال نخاف الاقتراب من الحسو، ومع ذلك أعرف عدة أشخاص وقعوا وهم أطفال في الحسو، فبعضهم مات ومنهم ابن لخالتي لولوة بنت موسى العضيب والده محمد البييبي، وبعضهم سلموا ومنهم زميلنا وصديقنا الشيخ محمد بن سبيل إمام المسجد الحرام، فقد وقع في البئر ولم يكن والده في البيت فصاحت والدته لبعض النسوة التي أسرع أحد رجالها ينزل إلى البئر.

حدثني الشيخ محمد السبيل قال: سألت أمي بلهفة الرجل الذي نزل ليخرجني من البئر عما إذا كنت طيباً؟

فقال لها: ولدك (شاة أمس) وشاة أمس كناية عن الموت منذ وقت كالشاة التي ذبحت بالأمس.

قال: قال الرجل ذلك ظناً منه أنني قد متُّ لأنه رآني لا أتحرك من شدة السقطة، ثم أخرجه ولم يصب بأذى.

والأستاذ إبراهيم بن عبدالعزيز العمار مساعد مدير التعليم في منطقة القصيم سقط في البئر في عام ١٣٥٥ أو عام ١٣٥٦ وكان يدرس معنا في مدرسة الوهيبي الذي هو محمد بن صالح الوهيبي، وكنت لا أزال أدرس في تلك المدرسة، فلما عاد إلى المدرسة صار الأشقياء وناقصو التربية من الأطفال يسمونه (الحسو) ثم حولوها إلى (الحسيو) تصغير الحسو يريدون أنه قد وقع في الحسو مع أنه صغير، ولم يقع في الحسو باختياره، ولكن هكذا عهدنا بعض الصبيان الذين لم يربهم أهلوهم تربية صحيحة لا يحسبون حساب ما يخرج من أفواههم، فكانوا يعيرون الشخص بشيء لا يعيبه من ذلك أنهم يسمون من يكون لونه أحمر إما لبياض في جلده أو لصحة فيه مع بياض (حِمْرَه) أي الحمراء ويرددون ذلك على مسامعه يغيظونه بذلك، مع أنه لا فائدة لهم في إغاظته.

ويسمون من يكون شديد السمرة بالجَعَل، وإذا كان صغيراً أسموه (الجعيل) على لفظ تصغير الجعل، وقد يسمون الصغير (جعيل البطيخ) وجعيل البطيخ: جعل صغير يكون في أشجار البطيخ يتغذى عليها ويفسدها، ويريدون من ذلك لونه فقط.

ولا أظنني بحاجة إلى أن أذكر أن الجعل هو تلك الحشرة السوداء التي تخرج من الأرض في فصل الربيع، ومهمتها أن تدحرج البراز الذي يخرج من بني

آدم والروث الذي تطرحه الدواب، ويدفن تلك الدحاريج التي يجعلها على هيئة كرة في الأرض.

ولا مانع من أن نذكر السبب الذي جعل (الجعل) يفعل ذلك، فالعوام يقولون في خرافاتهم: إن الجعل عشق نجم الزهرة المضيء الجميل الذي بدا له ولغيره من الناس في القديم وكأنما هو غانية جميلة، فبعث الجعل إليها بقصيدة يتغزل فيها بجمالها، وأسباب عشقه لها وأنه يريد أن يتزوجها، ولذلك يطلب منها أن تنزل من السماء إلى الأرض ليتزوج بها.

قالوا: فقالت له: إن مكاني في السماء نظيف والأرض فيها نجاسات من الناس والحيوان فلا أستطيع النزول لهذا السبب.

فقال لها: إذا نظفت الأرض من هذه النجاسات هل تنزلين إليَّ من السماء؟

فقالت: نعم.

فأخذ في تنظيف الأرض بأخذ العذرات التي هي البراز وروث الدواب ودفنها في الأرض، لكنه لم يستطع تنظيف الأرض منها حتى الآن لذلك لم تنزل إليه الزهرة!

وهذه خرافة ظاهرة ولكن الشيء العلمي أن الجعل يفعل ما يفعله بالفطرة لأنه يبيض فوق هذه الدحاريج أي الكروي من البراز أو الروث ويدفنها في الأرض حتى إذا كان بعد مدة فقس بيضه وصار يتغذى على ذلك البراز أو الروث حتى يحين فصل الربيع ليخرج من الأرض.

أما الجعل الأصلي الذي باض ودفن بيضه مع العذرة فإنه يصيبه حر الصيف فيموت، وبذلك لا يتعدى عمره فصل الربيع، إلا أنه لا يموت حتى يخلف من نسله من يكون مثله.

والكلام على الألقاب السيئة التي كان الناس يلقبون بعضهم بعضاً بها واسع ويحتاج إلى بحث برأسه، لأنه طريف، وكثير من تلك الألقاب والتعبيرات قد ماتت ونُسيت، وقد سجلت طائفة منها ربما كانت أكثرها في كتبي اللغوية ومنها (معجم الألفاظ العامية) و(كلمات قضت) و(تكملة المعجم اللغوي).

ويتبع الحسو في البيت (اللزى) والمغاسل والقراوة.

أما اللزى فإنه مكان مبلط بالحجارة التي لم تربط بالأسمنت ولا غيره، أما الأسمنت فإنه لم يكن معروفاً عندهم، وأما الرخام فإنهم لا يستعملونه، ولكن ما دام اللزى على الأرض فحتى لو كان بين حجارته التي لابد من أن تكون على الأرض فتحة أو فتحات فإنه لا مانع من ذلك لأن الماء الذي يتسرب منها ستشربه الأرض.

ويستعمل اللزى لغسل الملابس والأواني، أي إنها تغسل فوقه، وكذلك لاغتسال الأطفال الذين لا مانع من رؤية عوراتهم لصغرهم.

وبجانب اللزى المغاسل وهي التي تستعمل للوضوء والاغتسال للبالغين، فالماء يستخرج من البئر بالدلو التي يسحبها الرشاء بقوة عضلات من يرفعها من البئر ويفرغ ماء الدلو في القرو وهو كالإناء الكبير ولكنه من الحجارة المنقورة أي المنحوتة، ويكون للماء مخرج في أسفله هو البلبول.

و(البلبول) يكون في دور الأغنياء من الصفر وكثيراً ما كنا نستعمل غلاف طلقات البندق الفارغة بأن يقطع أسفلها فتصبح كالأنبوبة الصغيرة.

أما الفقراء وغير المبالين بالمظاهر فإنهم يجعلون (البلبول) من عظم ذراع خروف أو شاة أي من عظم قائمة الخروف كيده أو رجله.

فالبلبول أشبه ما يكون بالبزبوز الآن.

والقرو في المتوسط كما في بيتنا اثنان (القرو) التحتي للوضوء وغسل الوجه واليدين و(القرو) العلو، أي الأعلى للاغتسال.

ولكن الاغتسال يكون في المسبح، وليس في (اللزى)، والمسبح كالحجرة الصغيرة تكون في خلف اللزى محجوبة عن الأعين لها باب.

وهذا ما كان موجوداً في بيتنا هذا، وإلا فإن بعض الناس أو لنقل إنهم أكثر الناس لا يكون للمسبح باب عندهم.

كان والدي رحمه الله يعتني بالنخل الذي في بيتنا لذلك كان يأمر نساءه وهن أختي غير الشقيقة (منيرة) وأُمها زوجته طرفه، ووالدتي أن (يزعبن) على النخل فكل واحدة منهن ترفع من ماء البئر دلوين أو ثلاثة تفرغ ماء الدلو على اللزى فيذهب مع مجرى له إلى النخل، ولا يكون ذلك إلاّ في شدة الحر، فكنا ونحن صغار نبادر لنخلع ملابسنا ونجلس في اللزى حتى يسكب الماء علينا وهو بارد لأن ماء البئر بارد فنجزع من ذلك جزعاً محبوباً، لأن برودة الماء ومجرد وقعه على الجسم أمر مطلوب للأطفال.

وجميع أواني البيت ومنها أواني الطبخ تغسل بهذا الماء المر وهو لا ينظف الدسم، ولكن النساء يستعن على ذلك بالليف الكثير ليف النخل، ورمل خشن يدلكونها به، فيذهب ما قد يكون علق بها من بقايا طعام ونحوه، ولا توجد منظفات أخرى للأواني.

وكذلك ملابس أهل البيت كلها تغسل بماء البئر المر ولكن يستعان بتنظيفها بالإشنان وهو أوراق شجر بري ينبت عندهم ولا يكاد يكون له ثمن، وطالما آذانا ونحن صغار بقايا أعواد الإشنان التي تكون عالقة بالملابس بعد غسلها ووضعها فيه.

والغريب أنه ينقى من الوسخ حتى لو كان الماء مالحاً أو بارداً ولكنه كلما قلت تبقى منه بقايا داخل الثوب بعد أن ييبس حتى إذا لبسها اللابس

من دون أن يكون بينها وبين جلده شيء كما هي عليه الحال عندنا من قبل، حيث لم نكن نعرف الفانيلا ولا لبس السراويل، وإنما يلبس الشخص ثوبه على جلده أحس بوخز تلك الأغصان الصغيرة من الإشنان، غير أن ذلك لا يستمر طويلاً، إذْ تحتّ وتتساقط من ثوبه مع الحركة لأنها تكون قد يبست.

أما الصابون فإننا لا نستعمله مطلقاً ولا نعرفه إلاّ من الكتب، أو من الحديث عنه في الأمصار وينبغي أن أذكر القارئ الكريم أننا من الأسر المتوسطة في الثراء والمال، وأما معيشتنا فإنها في أعلى الدرجات، أي إنها كمعيشة الأثرياء.

وقولي: إننا من المتوسطين في الثراء والمراد بذلك والدي وبيتنا في ذلك الزمن وإلاّ فإنني الآن ولله الحمد من الأثرياء، ليس معناه أن نصف الناس من الأغنياء ونصفهم من الفقراء بمعنى أن النسب متعادلة أو متقاربة بين الطرفين.

ومع أنه لا توجد إحصاءات رسمية فإن الذي اعتقده أن نسبة الفقراء في ذلك الوقت تعادل ستين أو سبعين بالمائة والأغنياء ٥٪ والباقي مثلنا من المتوسطين غير أن معيشة المتوسطين بمعنى ما يتناولونه من طعام وما يلبسونه من لباس هو مثل ما يتناوله الأثرياء لأنه لا توجد معايش وملابس عامة تفرق بين الطائفتين وإنما الفرق الظاهر هو بين الأثرياء والفقراء.

لقد ذكرت هذه الملاحظة من أجل إيضاح مستوى ما أذكره عن بيتنا وعن حالتنا فيه.

المرحاض:

يقع إلى جانب المغاسل منفصلاً عنها ومرتفعاً في موقع منها المرحاض وله أسماء عندهم منها المفضى أي المكان الذي يفضي الإنسان عن نفسه

فيه ما يجده من كرب بسبب إحساسه بوجوب إخراج الفضلات، وهو مكان إخراج الغائط.

ولا يستعمل فيه الماء مطلقاً، وإنما يستعمل فيه الاستجمار وهو مسح المكان بحجر أو مدرة وهي القطعة من الطين اليابس، ونظراً إلى أن هذه ليست منقية فإنهم يستنجون بالماء لتنظيف الفرج قبل الوضوء في مكان آخر هو مكان الوضوء.

وللمرحاض رائحة كريهة جداً لاسيما أن أرضه على مستوى الأرض المعتادة للحوش ويبنونه مرتفعاً بحيث أن الذي يريد قضاء الحاجة فيه لابد من أن يصعد إليه بدرج فيجد فتحة فيه أعدت ليقع فيها الأذى.

وأصعب ما في الأمر أنه لا يمكن استنقاذ ما يقع من هذه الفتحة من المرحاض لأنه يقع وسط الفضلات والبراز الذي لا يكون يابساً لأن من يتغوط يبول فيه أيضاً، ولكنهم يكافحون رطوبته وشدة عفونته بوضع الرماد فوقه فهو يخفف الرطوبة ويحد من تولد الدود فيه.

والعادة أن المرحاض هذا إذا امتلأ بالبراز وجد من الفلاحين من يأخذه سماداً لفلاحته، وإذا لم يمكن تعجيل أخذه أخرجه صاحب البيت ووضعه في وسط (الدمالة) التي هي كومة السماد في الحوش ودفنه في السماد فيحمله الزراع مع السماد لإخصاب مزارعهم.

وفي الحوش قريباً من باب المراح (الدمالة) وهي كومة السماد غير البراز التي تتكون في البيت، ومن لطف الله بهم أن النفايات والمخلفات عندهم قليلة فليست لديهم معلبات، ولا أوراق ترمى، وإنما هذه (الدمالة) تكون لقمامة البيت.

وبجانب (الدمالة) المبولة وهي التي يبول فيها الصغار والكبار إذا لم يكن في البيت كبار يحتشم منهم.

صُفَّة الملح:

وفي بيتنا أيضاً وهي خاصة به (صُفَّة الملح) والمراد به (ملح البارود) حيث خصصت هذه الصفة وأمامها جزء مسقوف كالغرفة التي ليس عليها باب، وإنما مكان الباب فيها كالجدار المكشوف.

ويصنع فيها (البارود) وتتولى تدبير ذلك امرأة والدي وهي ابنة عمه، وكان والدي عندما خطب والدتي من أخيها الأكبر خالي عبدالله بن موسى العضيب ولم يكن شقيقها اشترط خالي عليه ألا تلمس والدتي ملح البارود، ولا تعمل أي عمل فيه، وذلك لما كان يعرف من الخطر على من يقترب من البارود، إذْ قد ينفجر فيه، وقد حدث هذا من قبل لمن لا يعرف كيف يصنعه، لأنه لابد فيه من دقه بنقيرة كبيرة، وهي الصخرة القوية المنقورة، وذلك بعمود من الحجارة كبير، وإذا حدث أن لمس العمود طرف النقيرة من مكان حاد فيها وحصلت شرارة انفجر البارود إذا كان الذي يدقه غير بصير بعمله.

ولذلك لابد من أن يوصوا من يكون غير عارف به أن يكون الدق في وسط النقيرة وليس في أطرافها، ولا أذكر أنه حصل انفجار عندنا، وإنما حصل وبصورة ضيقة عند غيرنا.

وإذا كان المطلوب من البارود كثيراً كان لابد من إحضار عامل قوي العضلات يدقه في مكان مخصص لذلك من قسم الرجال، ولا يسمح له بدخول قسم النساء، ولا حيث غرفة الملح.

وللبارود المتفجر وصنعته حديث شيق في غير هذا الكتاب يتناول كيف وصلت إلى أسرتنا معرفة صنعه، وأثر ذلك عليها، مجاله واسع يمكن أن يكون في (معجم أسر القصيم) أو في الكتاب الذي يعتزم كاتب هذه السطور أن يكتبه في ترجمة نفسه إن مَدَّ الله في العمر ويسر كتابته.

ولكنني اكتفي هنا بمقطوعتين من الشعر أولاهما قالها رشيد بن ماطر الأشقر السالمي من بني سالم من حرب في جدي عبدالرحمن العبودي، والثانية في مدح والدي قالها فرج بن خربوش من أهل جبل سلمى قرب حائل، قال رشيد الأشقر:

جنيت لها ملح الشفا والمضيح ... من غير مجنى جبت ملح (العبودي)
باغٍ إلى رحت العصير اتضيَّح ... لقيتهن في خِبَّةٍ من نفود
كم تيس ريم من ندبها تريح ... جَبَّتْ معاليق السَّحَر والعضود
يا جعل (العبودي) بالجنان يتميح ... في جنة الفردوس يرقد رقود

قال والدي: فقال له والدي: الله يهديك يا رشيد تبين أرقد بالجنة وأنا ما أحب النوم بالدنيا.

فقال له رشيد: يا عبدالرحمن العبودي إلى دخلت الجنة سوّ اللي تبي إن بغيت ترقد أو لا ترقد.

وقال فرج بن خربوش في مدح والدي ويذكر رجلاً اسمه علي من أهل حائل كان قد اشترى منه ملحاً- أي بارود- فوجده رديئاً:

يا علي، وآ ملحك خراب البواريد ... وآ دبل كبد اللي بملحك تُكالِ
ملحك عن النيشان ياخذ تصاديد ... يخطي السلوب، ولا يصيد الجلال
ملحك على ملح (العبودي) تقاليد ... هو ملحه الصافي، وملحك حْتَالِ

❖ ❖ ❖ ❖

يا راكب من فوق زين المشاديد ... تلفي (العبودي) شوق زين الخيالِ
نزه الشوارب عن جميع العواقيد ... سهل النبا، ياتي على شف بالي

الطابق الثاني:

لقد أنهيت الكلام على الطابق الأرضي من البيت ووجب أن أتكلم على ما فوقه.

أهم ما في الطابق الثاني هو السطح ويسمونه (الطاية) وهذه أكثر استعمالاً من كلمة السطح له، وإن كانت مستعملة.

وهو سطح القبة وما يفتح عليها من الغرف، لذا هو واسع مع أن فيه من جهة الشرق (الموقَد)- بفتح القاف- وهو المطبخ الذي فيه أدوات الطبخ كالقدور والصحون، وفيه المقرصة التي يقرص فيها القرصان.

وفي جانب منه التنور وهي من الطين الحر تصنع كأنها البرميل وتجلل بما يدعمها من الطين من الخارج.

ولا يستعمل التنور إلا للمناسبات لأن إحماءه يحتاج إلى حطب كثير، لا يغتفر هدره إلا إذا كان سيخبز فيه خبز كثير.

وجميع الوقود على الطعام هو بالحطب الذي إذا كان يابساً جيداً كان هذا من الحظ الحسن لربة البيت، أما إذا كان الحطب رطباً وفيه دخان كثير كحطب الأثل فإن ربة البيت تعاني كثيراً من دخانه.

ولا أزال أذكر وأنا صغير أنني إذا دخلت (الموقَد) على أمي وهي تسوي العشاء وبخاصة إذا كانت تقرص القرصان الذي لا يحتاج إلى حطب جزل، بل إنه يحتاج إلى حطب خفيف لم أر شخصها من فرط الدخان.

وليس في الموقد هذا الذي هو المطبخ إلاّ سماوة في ركن منه وهي فتحة في السقف يخرج منها الدخان ولكنها ضيقة، إلاّ أن من حسن الحظ أن باب المطبخ يظل مفتوحاً دائماً.

وفي السطح غرفة واحدة تفتح عليه وهي خالية، ويفتح عليه أيضاً المصباح، ولكنه ليس واقعاً على جزء منه، بل هو فوق مخزن القهوة، وننام في هذا المصباح في الليالي التي يبدأ فيها البرد بالاشتداد، ولكن النزول إلى الغرف السفلى لا يطاق.

أما النوم في السطح فإنه يظل طيلة ليالي الصيف في الحر، وما لحق به أو سبقه من أوقات الحر في الربيع أو الخريف.

وأكثر ما في هذا السطح أو الطاية خطراً على الأطفال هذه السماوات- جمع سماوه- وهي الفتحات التي في سقف القبة وسقوف الغرف الأخرى ليدخل منها النور والهواء البارد في الصيف، لأن جميع الغرف في بيتنا ليس فيها نوافذ، ما عدا غرفة القهوة.

وكنا ننام جميعاً في هذا السطح حيث تتناثر المنامات، وهي فرش النوم فيه دون نظام، إلاّ أن أبي كان ينام في السطح الأعلى مع إحدى زوجاته غير أنه عندما كبر سنه صار ينام معنا في هذا السطح، وكان الماء الأبيض (الكناركت) يغزو عينه فضعف بصره شيئاً فشيئاً حتى كف بصره بسببه، فكان لا يهتدي إلى (منامه) وهو فراش نومه في هذا السطح الكبير نسبياً الذي فيه مناماتنا جميعاً، فاخترع أخي سليمان له اختراعاً جيداً، وهو خيط وضع طرفه عند باب الدرجة التي يصعد منها إلى السطح، ودق بطرفه الآخر وتداً جعله فوق منام والدي، فكان والدي إذا صعد السطح وخرج من باب الدرجة المفضي إلى السطح أمسك بهذا الخيط أعلى من رأسه قليلاً وصار يسير ممسكاً به حتى يوصله إلى (منامه) أي فراش نومه.

وكان والدي يلقب هذا الخيط من باب التنادر بسلك العنكبوت لكونه دقيقاً يوصل إلى الهدف، لقد اخترع أخي سليمان هذه الطريقة، ولم يسمع بها من قبل وكان لا يزال صغير السن.

الطاية العلوة:

العلوة معناها: العليا، وسميت بذلك لأنها أعلى سطح في البيت، وهي سطح القهوة والمصباح ويعادل ارتفاعهما ارتفاع طابقين في البيت، ويصعد إليها من درجة من السطح الرئيسي، وهي درجة ذات زلفات من الطين ومكشوفة للمطر، وكثيراً ما يأكل المطر بعض أطراف زلفها فتصبح ملساء يصعب صعودها على المستعجل وعلى الصغير.

وكان والدي أول ما عقلت الأمور ينام في ليالي الصيف في هذه الطاية العليا، وتذهب إليه من كانت الليلة ليلتها من زوجتيه.

وكنت قبل أن أميز الأمور أنام مع والدتي فيها، ولكن نومي ليس كثيراً كما قالوا، لذلك كنت أصيح في الليل فيحملني والدي على ظهره نازلاً من هذه الدرجة إلى السطح الأسفل، ثم ينزل منه إلى درجة أيضاً إلى المخزن ويمر بالقهوة فيوقد السراج، وقد أخبرني بعدما كبرت أنني إذا رأيت السراج سكتُ عن الصياح ويعطيني مما في مخزنه وغالباً ما يكون ذلك أقطاً، أو يبيساً وهو تمر السكري اليابس حتى إذا رآني نعست أطفأ السراج وصعد بي مرة ثانية إلى الطاية العلوة.

ولا نعرف أيقاد السراج في السطح مطلقاً، وإنما يوقد في الغرف، والمنازل ذات السقوف.

وعندما كبرت وصرت أنام في الطاية العلوة لأن والدي صار ينام في السطح التحتي كنت أراقب النجوم في ظلام الليل البهيم الذي لا يكدره أي نور ينبعث من البيوت أو غيرها، فأعجب من جمال النجوم في السماء، لاسيما نجوم المجرة التي كنا نعتقد أنها أثر مجر الكبش الذي فدي به إسماعيل عندما أراد والده إبراهيم عليه السلام أن يذبحه.

وكنا نرى الشهب التي تتساقط في السماء على هيئة خطوط قصيرة من النور، فنقول إذا رأيناها: اللهم أجعلها على رأس شيطان، لأننا نعتقد أنها هي الشهب التي ترمى بها الشياطين الذين يريدون أن يسترقوا السمع على من في السماء.

إن منظر هذه النجوم قد أذهبته أنوار الكهرباء والأضواء المنبعثة من السيارات وغيرها، وكم كنت أتمنى أن أظفر بمثله على أية حالة كانت من الحالات.

فحتى البرية القريبة من المدن قد انتشرت فيها الأضواء ولو لم يكن من ذلك إلا أنوار الطرق والشوارع فيها لكان ذلك مفسداً لها.

أهل البيت:

وإذْ فرغنا من ذكر بيتنا والصفة التي كان عليها عندما عقلت الأمور أذكر أن سكانه ليسوا كثراً فهم والدي وزوجتاه وأختان لي من الأب أكبر مني كثيراً، وأنا وأخي سليمان الذي هو أصغر مني، ولذلك يصح القول بأن هذا البيت كبير عليهم، وهذا ظاهر من وجود بعض الغرف أو الأجزاء فيه خالية.

وقد مات أكثر سكانه المذكورين، بل ماتوا كلهم ولم يبق منهم من هو حيٌ الآن إلا أنا.

وكما قال المتنبي:

تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً، فيدركها الفناء فتتبع

وقد أدرك الفناء بيتنا هذا فزال من الوجود كلية وحل محل أبنيته أبنية أخرى من الأسمنت المسلح، وعلى صفة وتفصيل غير ما كان عليه من قبل.

وقد قررت الآن بعد أن تمت عمارته أن أبقي فيه عدة أيام لكي أستعيد ذكريات قد مضت على أبعدها خمس وسبعون سنة.

وشيء جديد:

ورأيت أن أعمل شيئاً جديداً بالنسبة إلى مدينتنا (بريدة) وهو أن أضع على هذا البيت لوحاً من الرخام أسجل عليه تاريخ هذا البيت على النحو التالي:

"اشترى أرض هذا البيت عبدالرحمن بن عبدالكريم العبودي في عام ١٣٠٧هـ وحوشه وغرس فيه نخيلاً ثم بناه بيتاً في عام ١٣١٣هـ وسكنه في حياته، ومات وهو يملكه في عام ١٣٢٣هـ، فاشتراه ابنه ناصر بن عبدالرحمن العبودي من الورثة وسكنه حتى مات فيه عام ١٣٧٠هـ، فاشتراه ابنه محمد بن ناصر العبودي من ورثته بعد موته وسكنه عدة سنوات، ثم هدمه وبناه بالمسلح وجعله وقفاً على سكنى المحتاج من ذرية والده (ناصر بن عبدالرحمن العبودي) خططه وأشرف على بنائه ابنه المهندس المعماري/ ناصر بن محمد العبودي وانتهى بناؤه هذا في عام ١٣٢٣هـ أي بعد مائة سنة بالتمام من وفاة بانيه الأول عبدالرحمن العبودي".

إنني عملت هذا من أجل حفظ تاريخ البيت وعسى أن يقتدي بي بقية الناس الذين لديهم بيوت أو دكاكين قديمة فيؤرخوها في ألواح رخامية مثل هذا.

وذلك أنني لاحظت أنه لا يوجد أي مبنى في بريدة من أبنية الأهالي مكتوب عليه تاريخ بنائه كما قدمت ذلك.

كيف نقضي يومنا؟:

نحن- كما قلت بل ربما كررت القول- بأننا أسرة متوسطة فلذلك يمكن أن يقاس علينا غيرنا من المواطنين في بريدة التي هي في ذلك الوقت وهو عام ١٣٥٠هـ، كبرى مدن نجد، فهي أكبر من الرياض ذكرها بذلك من كتبوا عن نجد في ذلك الوقت مثل فؤاد حمزة في (قلب جزيرة العرب) وحافظ وهبة (خمسون عاماً في جزيرة العرب).

وبيتنا رأسه و الساعي على إعاشة أهله كلهم هو والدي وهو في سن الثامنة والخمسين في ذلك التاريخ، أشيب الشعر أبيض اللون، متوسط الجسم يميل إلى النحافة، ولكن جسمه صحيح خالٍ من الأمراض، ولا أذكر أنه شكى مرضاً، أو ترك عمله بسبب المرض ، أو اعتكف في البيت لمرض حتى مرضه الأخير الذي مات فيه في عام ١٣٧٠هـ.

ولا يوجد طبيب في بريدة في عام ١٣٧٠هـ إلاَّ ممرض سوري وحيد أريناه إياه فأعطاه حبات من الأسبرين لذلك كان عليَّ بعد أن فهمت أعراض الأمراض أن أظن أنه كان يشكو من انحباس في البول وقد شخصت مرضه في ذهني بأنه تضخم البروستاتا، وتضخم البروستاتا يكون من ورم حميد ومن ورم خبيث، ولكنه لا يوجد دواء للاثنين في تلك العصور.

وعندما تطورت الأمور ووجدت المستشفيات في المملكة والمستشفى الأمريكي في الظهران كانوا يعالجون من تضخمت عنده (البروستاتا) حتى حبست البول بإهمال المجرى الطبيعي للبول، وفتح مجرى صناعي في الخاصرة أو أسفل منها متصل بالمثانة تجعل فيه أنبوبة مرنة أو قصبة يخرج منها البول.

ولكن ذلك متعب ومؤلم، وذلك لم يتسنى لوالدي لأنه لم يكن يوجد في عصره وإنما تهيأ ذلك لابن عمه وسميه (ناصر بن إبراهيم العبودي) الذي أصيب بتضخم البروستاتا على كبر، فقد حمله أولاده وهم موظفون إلى

المستشفى في الظهران ففتحوا للبول مجرى صناعياً وعاد إلى بريدة وبقي سنوات، وكان سليم الحواس رغم بلوغه سن (٩٧).

ولكنه ملَّ من هذا الأمر، وصار يتمنى الموت، وقد زرته قبل وفاته بسنتين وكانت سنه ٩٥ سنة، ولكن نظره وسمعه وتفكيره كل ذلك سليم فقلت له: كيف حالك يا عم؟ فقال: الله يأخذ أمانته.

وهذا تعبير عامي يريدون بالأمانة الروح، أي أنه يسأل الله الموت، فقلت له: يا عم، جاء في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: لا يتمنين أحكم الموت لضر نزل به، ولكن ليقل: اللهم أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وأمتني ما علمت الممات خيراً لي.

فقال: الموت خير لي.

فقلت له: ينبغي أن تفرح بفرصة اكتساب حسنات جديدة لك عن طريق التهليل والتحميد والتكبير التي يحصل بها لك الأجر، فقال: أنا سبحت وهللت كثير، الله يقبل وإذا قبله الله ففيه بركة!.

لقد توفي والدي وهو لم يتجاوز ٧٩ سنة وكان أبيض اللون مشرباً بحمرة وهو يمارس على نفسه أنواعاً من الطب الشعبي منه أنه كان يأكل (الصَبِر) وهو دواء مُرّ على مثل الصمغ الأسود تقول العامة: إنه يفيد في تليين طبيعة الإنسان.

كما أنه كان أحياناً يستعمل القيء لتنظيف المعدة، وذلك بأن يتناول ماء ملحاً، ويدخل إصبعه في فمه حتى يقيء.

وأما المسهل فإن عادة تناوله في فصل الربيع كثيرة شائعة، وكان والدي يأخذ المسهل ويعطينا منه بعد أن كبرنا.

والمسهل الذي يتناوله أنواع، منها البزر وهو حبوب سود لا أعرف اسمه العلمي، وهناك (حب الملوك) وقد يسمى عندهم (ملوك) فقط، وهو حب ذكرته في (معجم الألفاظ العامية) وذكرت أصل تسميته نقلاً عن أبن البيطار.

وهناك السنا الذي يعرف في كتب الطب بالسنا المكي، وهو أوراق أشجار تنمو عندهم ويستعمل بمقدار لأنه إذا زاد ضرّ.

ولشرب المسهل والأكل بعده عندهم نظام خاص قد تأتي فرصة لشرحه.

الدكان الجديد لوالدي:

الوالد صاحب دكان في سوق بريدة القديم وهو الذي كان يمتد من الوسعة الشمالية الواقعة في شمال الجامع الكبير (جامع بريدة) ينطلق منها جهة الشمال.

وقد ذهبت الوسعة التي كانت محاطة بالدكاكين وذهب معها جزء من ذلك السوق ومن دكان والدي، إذْ دخل ذلك في توسعة (جامع بريدة) التي أمر بها الملك فهد بن عبدالعزيز، وسمي بذلك (جامع خادم الحرمين الشريفين) وذلك الدكان هو وقف لعمة والدي وتقدم ذكره.

وكان والدي صاحب دكان بحق، إذْ كان ملازماً له بخلاف والده- جدي عبدالرحمن العبودي- فإنه كان شاعراً باللغة العامية صاحب أسفار وورث عن والده عبدالكريم العبودي ثروة طائلة، ولكنها ذهبت، ومع ذلك عاش عيشة طيبة واستمر يملك البيت الذي كان بناه وسكنه حتى مات فاشتراه والدي من تركته، وهو هذا البيت الذي تكلمت عليه وقد بقي حتى بعد أن انتقل سوق بريدة الرئيسي إلى السوق

الشرقي الذي ينطلق من جردة بريدة نازلاً جهة الغرب حتى ينتهي بقبة رشيد التي دخل قسم منها في التوسعة للسوق المركزي.

وبقي والدي في هذا الدكان رغم انصراف السوق عنه حتى عام ١٣٥٥هـ، حيث انتقل إلى دكان في القشلة، وهي أعلى السوق الكبير في بريدة واقعة على جانبه الجنوبي.

وتملكه بنتان لحسن بن مهنا أمير بريدة هما حصة ومنيرة، وكليلهما عليه إبراهيم بن علي الرشودي، أحد زعماء بريدة، فكان يؤجره على والدي يأخذ منه الأجرة كل سنة، وكانت في أول الأمر ستة ريالات في السنة ثم زادت إلى ثمانية، وآخر الأمر صارت اثني عشر ريالاً.

وكان والدي ممتناً من إبراهيم الرشودي لكونه لم يزد عليه في الأجرة زيادة كبيرة، وأنا أذكر أنه بعد سنوات جلس الرشودي عند والدي في دكانه، وقال: يا ناصر، يقولون: أجور الدكاكين زايده، وأنا وكيل للحريم أهل الدكان، فقال له والدي: اللي انت تشوفه يا أبوعلي، فقال: إذا زدنا ريالين يكون مناسب؟

فقال والدي: نعم، ومشكور يا أبوعلي.

والريالان يمثلان ربع الأجرة الجديدة لأن الأجرة كانت ستة ريالات.

ولا تزال لدينا كتابات إبراهيم الرشودي بخطه عند تسلم الأجرة ولكنها مختصرة بحيث لا تزيد عن سطر ونصف، ويكتبها في دفتر والدي.

وأذكر أن نصها هكذا: (استلمت من ولد العبودي أجرة دكان حصة ومنيرة الحسن المهنا ستة ريالات قاله إبراهيم الرشودي).

ولا يسمي والدي باسمه، وإنما يقول: ولد العبودي لأن جدي كان مشهوراً أكثر من والدي.

إن إبراهيم بن علي الرشودي كانت له طبيعة خاصة فهو يترفع عن الجلوس عند كثير من الناس، وهذا طبيعي، ولم يكن يجلس، إلا في دكان صهره عبدالرحمن بن صالح الدخيل الذي تزوج ابنته، أي أن إبراهيم الرشودي هو زوج ابنة عبدالرحمن الدخِيل- بكسر الدال والخاء وتخفيف الياء.

من بين الذين لم يكن يجلس عندهم والدي فهو ليس صديقاً له، إلاّ أنني رأيته في أحيان قليلة يأتي إلى والدي يسأله عن بعض الأمور المتعلقة بالإبل ودواء الجرب الذي يصيبها لأن والدي كان يبيع أحياناً دواء جرب الإبل من الزرنيخ والسم.

وأذكر مرة أنه جلس عند والدي في دكاننا ليس لشيء إلا للجلوس، ولا أدري السبب، ولكنه سأل والدي سؤالاً مباشراً قائلاً: الولد وأشار إليَّ لكوني حاضراً وش لونه معك؟ عساه بارّ بك؟

فقال له والدي: يا أبوعلي، الولد ماهوب باله للدكان كل النهار جادع راسه بالكتب، يريد بذلك أنني أطالع كتباً في الدكان.

فقال إبراهيم الرشودي: هذي شارة طيبة، أي إنها خصلة جيدة، ثم خاطبني وأنا ابن ثلاث عشرة سنة قائلاً، يا وليدي: إلى عَزَّل السوق فألحقني أعطيك كتاب.

كان كلامه هذا صباحاً في أول حركة السوق، وبعد ذلك يذهب في العادة إلى جردة بريدة ليحضر بيع وشراء الإبل، ثم إذا عَزَّل السوق انتهى البيع والشراء فيه، يكون ذلك عادة في الحادية عشرة ترك الجردة نازلاً مع السوق ذاهباً إلى بيته.

وعندما عاد ذلك اليوم من الجردة ماراً بدكاننا تبعته إلى بيته غير البعيد وهو مثل كل الذين يرتادون السوق يأتون إليه سيراً على الأقدام فهو

بيته غير بعيد ولكن حتى الذين يكون بيوتهم بعيداً نسبياً يأتون سيراً على الأقدام.

فدخل بيته من باب القهوة الذي هو الباب الذي يدخل منه الضيوف في العادة، وقال لي: خلك واقف هنا- عند الباب- ودخل إلى البيت ثم أحضر بيده كتاباً كان يضربه بكفه ليطير ما علق به من غبار، وقال: خذ، وإذا به كتاب (عدة الصابرين) لابن القيم.

لم أصدق ذلك فمن ذا الذي يقدم لصبي مثلي ذلك الكتاب؟ وقد رسخ في ذهني ما عرفته من الذين أعطوني كتباً مثله بأنه عارية، فقلت له: متى أرده، يا عم؟ فقال: هو لك، لا ترده.

فدعوت له ورحت أعدو كما يعدو الطفل الغرير أقفز المسافة قفزاً لأبشر والدي بحصولي على هذا الكتاب، وإن لم يكن ينظر إليه كما أنظر إليه.

ونعود إلى ذكر دكان والدي فأقول: إنه لم يكن له عمل آخر غيره إلا أنه إذا كان الوقت صيفاً فإنه يدق الملح، أي يصنع (البارود) الذي تسميه عامة الناس بملح البارود، مع أن الملح جزء منه، بل هو أحد العناصر الثلاثة التي يتركب منها البارود، وهي الملح والكبريت الأصفر، والفحم.

والصيف هو موسم الطيور المهاجرة التي تمر ببلادهم في هجرتها السنوية في الربيع من جنوب الأرض إلى شمالها، ويكون ذلك أكثر ما يكون كثافة في النصف الثاني من شهر أبريل، ثم تعود إلى جنوب الأرض في الخريف وذلك في آخر شهر أغسطس وفي شهر سبتمبر.

ويفرح الناس آنذاك بموسم هجرة الطيور هذا، لأنه فرصة لحصولهم على لحم دسم لا يحصلون عليه في غيره من الفصول.

فكان والدي يدق (ملح البارود) للتكسب بذلك، وفيه مكسب عظيم لأنه لا أحد في بريدة يحسن أن يصنعه إلاّ نحن أسرة العبودي.

وقد اشتهر والدي عند الذين يشترون الملح للصيد بأنه صدوق وأن (ملحه طيب)، وهو لا يصنعه بنفسه، بل لا يلمسه أبداً، لأن عمل البارود يتطلب عملين مهمين، أولهما: (الدق) وهو ضربه بعمود من الحجارة ضخمة في النقيرة التي توضع فيها (الدَّقه) بفتح الدال وهو المبلغ المعتاد الذي يوزن وزناً بميزان موجود في بيتنا ولا يقوم بدق الملح إلا عامل قوي، فكان والدي يستأجر لذلك عمالاً أقويا (حرفية) أعرف أسماء عدد منهم الآن، ولكنني لا أريد أن أذكر أسماءهم لئلا يسوء أولادهم وأحفادهم حينما نذكر أن والدهم كان صبياً عندنا يدق الملح.

والعمل الثاني: هو قطعه وهو نخله بمناخل تتألف من ثلاث درجات بعد ترطيبه بالماء إلى درجة معينة حتى يعين ذلك على جعله حباً ودحرجته، ولاحظت أنهم يضعونه في المناخل التي تختلف فتحاتها سعة وضيقاً، مع أشياء تساعد على تدحرجه ولكنها لا تسحقه مثل بعض عظام الذبيحة التي تستعمل لهذا الغرض فقط أي المساعدة على دحرجته وجعله حبوباً صغيرة تسقط من آخر منخل وتبقى تستعمل دون أن تستهلك، ثم بعد ذلك ينشر في الشمس فإذا جف باعه والدي.

وتقوم بهذا العمل زوجة والدي التي كان تزوجها قبل أمي، ولم تكن أمي تلمس ملح البارود مطلقاً كما سبق.

وتساعد أختي لأبي، وهي ابنة لزوجة والدي أمها على ذلك، ولا يكون دق الملح إلاّ في الصيف.

وكان ملح البارود مربحاً ليس عن طريق بيعه فقط، ولكن عن طريق التعامل مع كبار الناس وصغارهم في القدر.

فأذكر أننا في القيظ نتلقى هدايا عديدة من الطيور التي صادها الناس ومن (طياس) – جمع طاسة- الرطب ومن الخضرات.

وذلك أن الناس من أهل الخبوب والقرى الذين يصيدون الطيور المهاجرة ليس عندهم نقود في الغالب يشترون بها البارود، وألقموع قموع البندق، والرصاص، الذين هو الرش الصغار من الرصاص وهو الذي ينطلق من البندق فيصيب الطير الذي يراد صيده، فكانوا إذا صادوا شيئاً من الطيور أول ما يصيدونه لم يأكلوه رغم حاجتهم إليه، وإنما يهدونه إلى والدي وهم عشرات بل مئات فيأتي الشخص منهم بكيس من القماش أو خرقة بالية من القماش بعدد من الطيور ويقول لوالدي: هذه صويدات- تصغير صيدات جمع صيدة بمعنى المصيودة- لكم نبيك تذوقها.

ووالدي يعرف هدف الرجل من هذا الإهداء فيقول له: الله يقديك بشوفك، أو يقول: الله يكثر خيرك، ثم يعطيه وغالباً ما يكون ذلك بالخرقة أو الكيسة التي أحضر فيها الطيور إذا كانت صالحة ملحاً وقموعاً قليلة فيفرح الرجل لأنه سوف يصيد بذلك الذي وصل إليه بالمجان مع أنه لا يحصل عليه إلا بنقود لا تتوفر عنده أضعاف ما أهدي لوالدي من الصيد.

وبعضهم يهدي كذلك خضرات كاللوبيا.

ولذلك كنا نعيش مرفهين في الصيف، أما في الشتاء فإن الطلب على البارود يقل جداً، إذْ لا توجد طيور مهاجرة تصاد، وإنما يشتريه من يتبعون الصيد البري كالأرانب والظباء والقطا ولكن عددهم قليل، والمال في أيديهم شحيح.

لذلك كان والدي يقول مازحاً: (أنشدكم عن ناس ملوك بالقيظ، صعاليك بالشتاء) ثم يقول: إنهم نحن.

مع أنه صاحب دكان يبيع في الشتاء مثل ما يبيع غيره من أهل الدكاكين، ولكن لا يكون عنده من النقود ومن ترف العيش مثلما يكون في الصيف.

ودكانه يبيع فيه ملابس الأعراب التي تكون رخيصة رديئة النوع منقوشة الجيوب وأطراف الكم، ، ويبيع أدوات الصيد مثل الرصاص، وإذا أصاب الإبل جرب وللجرب مواسم تارة يكثر، وتارة يقل، فإنه يبيع أدوية الجرب التي هي الزرنيخ والسم.

وأكثر ما كان والدي يفرح به إذا حل الخصب وكثر الخير عند اقتراب أهل البدو لأن التعامل معهم فيه خير كثير، لكونهم لا يعرفون أسعار السلع في الغالب، وكثيراً ما يتم التعامل معهم بالتقايض كأن يكون مع الأعرابي عكة من السمن وليست معه نقود فيشتري بما يقايضه ثوباً لطفله أو سلعة أخرى فيكسب والدي مثل أهل الدكاكين الأخرى بالسلعة التي عنده ويكسب من عكة السمن التي قايض بها الأعرابي والعكة هي وعاء السمن يكون من الجلد.

ويفرح أهل الدكاكين بالأعراب، إذا كثر عندهم الخير من الأقط والسمن ويسمونهم قناديل الأسواق.

إن الحديث عن الدكان الثاني لوالدي جره الحديث عن الدكان الأول الذي كان لوالدي في المدة التي ذكرتها وهي عام ١٣٥٠هـ أي منذ ٧٥ سنة، وإلاّ فإن الكلام عليه ليس من شرط هذا الكتاب وإنما محله السيرة الذاتية.

كان والدي يخرج إلى دكانه مبكراً في صباح كل يوم وذلك لكون العمل في الأسواق كلها يبدأ مبكراً، إذ الناس ينامون مبكرين والعمال يبدؤون العمل مع طلوع الشمس والمراد بالعمال هنا (الحرفية) الذين يعملون

في البناء بالطين والأجراء عند الفلاحين ونحوهم، وأما العمال الذين هم مثل الفراشين والمراسلين فإنهم لا وجود لهم، وأهل الدكاكين لا يبكرون مثل العمال بل يتأخرون بعد طلوع الشمس بقليل.

ولم يكن يعد له ولا لغيره طعام الفطور فلم يكن يعرفه مطلقاً وإنما كان والدي يسوي القهوة بعد صلاة الفجر مباشرة ويشربها ويكثر منها، ثم بعد ذلك يذهب إلى دكانه مثل سائر أهل الدكاكين، وهذا في سائر فصول السنة، إلا في فصل الشتاء، حيث يحتاج المرء إلى طعام يدفئه فإنه قد يأكل ما ذكرته من قبل مثل الحنيني والعصيد أو القشد.

يفتح دكانه مبكراً- كما قلت- ثم يبقى فيه إلى نحو الساعة العاشرة فيغلقه ثانية ويعود إلى البيت ليتغدى، والغداء هو التمر وحده، لا شيء معه مطلقاً إلا اللبن إذا تيسر ولا يكاد يخلو بيتنا من اللبن، وإذا لم يكن لبن فإن الماء يكفي عنه.

وفي القيظ وبصفة غير منتظمة في هذا الفصل قد يكون مع الغداء شيء من البطيخ الذي يؤكل طازجاً وهو الجح- الحبحب- والجراوة، الشمام، والغضارم وهي نوع لا ينضج من الجراوة.

وأنواع البطيخ هذا عندهم لا تكاد تتغير فالجح من نوع مخطط كروي، ولا يعرفون غيره من البطيخ، وإذا نضج الجرو يربطه الفلاح بشيء من خوص النخل ويبيعه هكذا ويسمى (الجرو الفاصخ) بمعنى الناضج ، ولم يكونوا يعرفون الخيار ولا القثاء وإن كان يوجد على ندرة نوع طويل من القثاد يسمى الطروح وهو الذي يعرف في العراق باسم (عجور) ولكن المرء قد يمضي سنة أو سنتين بدون أن يرى منه شيئاً.

بعد الغداء في البيت يعود والدي إلى دكانه فيبقى فيه مدة تختلف في الشتاء عنها في الصيف، إذْ في الشتاء حيث يكون النهار قصيراً والناس لا

ينامون نومة القيلولة لطول الليل، وقصر النهار يبقى فيه إلى ما قبل آذان الظهر بقليل، أما في الصيف حيث يكون العكس من ذلك بالنسبة إلى طول النهار وقصر الليل فإنه يعود إلى البيت قبل فترة تكون كافية لنوم القيلولة، وهم يؤخرون صلاة الظهر في الصيف يبردون بها أي ينتظرون حتى يبرد الوقت قليلاً بعد الشمس الحامية في الهاجرة.

وقهوة الظهر لابد منها فيسوي القهوة وإذا دعا أحداً أو حضر إليه أحد (مسير) أي قادماً دون دعوة تقهوى معه، وقد يحضر الهجور للضيف لأن الضيف ربما لا يكون أخذ كفايته من الغداء، أما والدي فإنه لا يأكل الهجور لأنه يكون قد اكتفى من الغداء، وهو من طبيعته أنه ليس أكولاً.

وبعد القهوة التي تكون بعد صلاة الظهر المؤخرة قليلاً يبقى وقت من الفراغ يقضيه في حاجة أهله في البيت أو يداعب الأطفال.

ولا يذهب ولا غيره من أهل الدكاكين إليها قبل صلاة العصر لأن الحركة الاقتصادية ضعيفة يكفي منها بسطة الضحى وبسطة العصر.

كان يحرص على صلاة العصر مثل سائر الأوقات مع جماعة المسجد، وكان الرجال الذين لهم أقدار يحرصون كلهم على ذلك، قياماً بالواجب المفروض في أداء الصلاة، والتأكيد على أن تكون مع الجماعة، ولأن عدم الحضور إلى الصلاة جماعة يسقط قدر الإنسان.

وبعد صلاة العصر يذهب إلى دكانه فإذا كان مفتاحه معه وهو مفتاح كبير من الخشب ذهب مباشرة من المسجد إلى الدكان وإذا لم يكن معه عاد إلى البيت فأخذه وذهب إلى دكانه.

فإذا كان قبل صلاة المغرب بثلثي ساعة أو نحوها عاد إلى البيت ليجد عشاءه جاهزاً، فإذا انتهى منه يكون المغرب قد أذن أو قارب أن يؤذن

فيمسح يديه بخيشة عندنا ثم يغسلها بإشنان لكي تذهب منهما رائحة الدسم والطعام وذهب للصلاة.

وبعد صلاة المغرب ينتظر قليلاً في المسجد ثم يعود إلى البيت وقد يذهب إلى بيت خالي عبدالله بن موسى العضيب الذي ليس بعيداً فيجلس فيه مع الجالسين الذين كان خالي يفتح باب بيته من أجلهم لأن له عادة أن يحضر إليه إمام المسجد وهو الشيخ صالح بن كريديس فيقرأ عليه بعض الصبيان أو الشبان من أهل المنزل أو الجيران فترة تكون القهوة المبهرة فيها قد أديرت على الحاضرين وفي الصيف تكون قربة الماء البارد الحلو معلقة في ليوان البيت أيضاً.

وقد عهدت خالي إبراهيم بن موسى العضيب وأخاه صالحاً يقرءآن على الشيخ ابن كريديس في هذا الدرس وفي آخر عمره قرأت عليه في البيت أي بيت خالي وعدما توفى وانتقل خالي من بيته الواقع شمال مسجد ابن شريدة إلى بيت له جديد بناه شمال مسجد ابن مساعد الذي يقع إلى الشمال من مسجد ابن شريدة وقد بني هذا المسجد عام ١٣٥٧ هـ.

كان إمام مسجد ابن مساعد الشيخ صالح بن عبدالرحمن السكيتي يجلس لنا في بيت خالي بعد المغرب نقرأ عليه، وكان ممن يقرأ أنا وابن خالي موسى بن عبدالله العضيب وابن أخيه عبدالرحمن ويعرف بدحيم، ويسمونه موسى الدحيم ومحمد بن رويسان وهو رجل كبير السن في ذلك الوقت.

وبعد آذان العشاء ينصرف القوم عائدين إلى المسجد فيصلون السنة ركعتين أو أربعاً، تقام صلاة العشاء بعدها من المؤذن الصيت المواظب إبراهيم بن صالح الصايغ الذي ظل يؤذن في هذا المسجد أكثر من ٥٠ سنة.

وبالنسبة لوالدي كان يصلي السنة والوتر في المسجد ثم يعود إلى البيت يستعد للنوم، وكان يقول لي مداعباً: أنا يا وليدي- أفك زراي بالسوق، أي

أنه يفتح إزار ثوبه الذي كان قد زره على حلقه وهو في السوق قبل أن يصل إلى البيت استعجالاً للنوم.

وهذا كناية عن كونه ينام مبكراً لأنه يذهب إلى مكان نومه بعد الصلاة مباشرة إلاّ في الشتاء حيث الليل طويل فكان في كثير من الأوقات يسوي الحليب من المعزى ويقرأ على سراج التنك في جزء عم مما حفظه في الكتّاب تلقيناً، وقال إنه يحفظ إلى سورة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾.

الطريق إلى الدكان:

لا أذكر المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى دكان والدي لأنه كان رحمه الله يحملني على كتفه وأنا صغير دون سن التمييز، وذلك من باب الفرح بوجود ابن له وصل إلى سني آنذاك كما قدمت، وكان تزوج بثلاث قبل أمي طلق اثنتين وبقيت معه ابنة عمه حتى مات، لم يجمع بين أكثر من اثنتين.

وقد ولد له أبناء وبنات من الزوجات السابقات، فأول امرأة تزوجها اسمها نورة بنت رشيد الشدوخي ذكر أنها جميلة وأنه أحبها غير أنها لم تنسجم مع أمه لذلك طلقها وكان معها منه بنت اسمها (حصة) كبرت وتزوجها عبدالرحمن بن عبدالعزيز المقبل، والثانية من آل سالم أبناء عمنا ماتت وهي في عصمته سنة الرحمة عام ١٣٣٧هـ ومعها طفل صغير منه مات أيضاً.

والثالثة ابنة عمه وهي طرفة بنت إبراهيم العبودي، رزق منها ببنات أكبر مني، عاش منهن اثنتان فقط تزوجتا، وولد له منها ابنان ماتا صغيرين.

لذلك كان والدي يحملني وأنا صغير لا أعقل على كتفه يأخذني إلى دكانه.

ومن الطرائف التي حدثني عنها والدي في هذا الصدد أن المطوع ابن كريديس وهو شيخ كبير بمعنى عالم جليل وهو صالح بن إبرهيم الكريديس وهو مطوع مسجدنا الذي نصلي فيه (مسجد ابن شريدة) كان له دكان بجانب دكان والدي فرأى والدي يحملني على كتفه يحضرني من البيت فقال لوالدي مداعباً له: يا ناصر، ولدك تقدم نفعه لك: يركبك، يريد أنه يكون على كتفك فكأنه قد ركبك.

قال والدي: فلم أرد أن أردَّ عليه وهو شيخ له قيمته وإنما سكتُّ.

وكان له ابن يسميه تدليلاً (كريدس): تصغير كريديس مع أن اسمه غير ذلك، فصار يحمله على كتفه وهو صغير إلى دكانه.

قال: ومرة كنت في دكاني وإذا بالمطوع ابن كريديس يقول لي: يا أبو محمد، حط بالك على دكاني أبي أروح للبيت وأجي، ولم يكن الذهاب إلى البيت في منتصف عمل الدكان معتاداً فسألته: لماذا؟

فقال: بال ولدي عليَّ وأنا شايله على كتفي وأبي أروح للبيت أغسل جسمي وأغسل ثوبي.

قال: فذكرت قوله لي الذي لم أرد عليه في وقته وقلت: يا المطوع، ولدك هذا تقدم نفعه لك يركبك ويزغّل عليك!

فضحك، وقال لي: ألا تزال تذكر قولي لك مثل ذلك؟ فقلت: نعم.

جيران الدكان:

ذكرت الجيران من الرجالة ذوي الشخصيات المهمة في الزقاق الذي فيه بيتنا في كتاب (يوميات موظف بعد الستين سنة من العمل في الوظيفة)، وهو الذي كتبت فيه بعض اليوميات لأقارنه بما كتبته من اليوميات في أول عهدي بالوظيفة الحكومية قبل ستين سنة، وما تلي ذلك من سنوات، وقد

أعود إلى ذكر جيران البيت مرة أخرى ولكن بشكل أوسع من ذلك بمعنى ألا أقتصر على الجيران الذين تقع بيوتهم في الزقاق الذي فيه بيتنا، وإنما أذكر جيران ذلك الزقاق.

وهنا أذكر من لا يزالون في ذهني من جيران والدي في دكانه.

قلت: إن دكانه يقع في السوق الشمالي لبريدة، الذي يمتد من عند الجامع الكبير متجهاً إلى الشمال، وهذا كان هو السوق الرئيسي ببريدة قبل أن تتوسع وتنشأ فيها (الجردة) ذلك الميدان الواسع الذي اشتهر بأنه أكبر سوق لبيع الإبل في العالم بعد ذلك، وانطلق منه السوق الكبير المشهور، وقد ذكرت الجردة وكيف نشأت دكاكينها في (معجم بلاد القصيم) ومن ذلك تاريخ إنشاء دكاكينها ليعرف منه تاريخ إنشاء ذلك السوق الكبير الذي كان أعظم سوق تجاري تمتد عليه الحوانيت في مدن نجد كلها.

ثم هجره الناس وانتقلوا إلى الدكاكين والمحلات التجارية على الشوارع الرئيسية، وبخاصة شارع الخبيب، ثم الشوارع الأخرى التي نذكر منها (شارع الصناعة) وهو منسوب في الأصل إلى الصنَّاع الذين هم جمع صانع والمراد بهم الحدَّادون الذين يصنعون الأدوات الحديدية، والصفارون الذين يصنعون الأواني النحاسية، وكان لهم سوق من حوانيت منتظمة عندما عقلت الأمور في عام ١٣٥٠هـ يسمى (سوق الصنانيع) وقد هدم أكثر ذلك السوق عندما وسعت المنطقة التي تقع إلى الشمال من جامع بريدة.

وبعد أن أنشئ السوق الكبير في بريدة انتقل إليه معظم التجار حتى لم يبق منهم في السوق القديم الذي فيه دكان والدي إلاّ القليل ومنهم والدي، وإنما تحول سوقهم إلى الخرازين وصار يسمى (سوق الخراريز) لأن الخرازين صاروا فيه هم الكثرة الكاثرة.

وعندما عقلت الأمور في عام ١٣٥٠هـ كان السوق قد سمي سوق الخراريز وإن كانت بقيت فيه بقية من دكاكين أناس غير أهل الصناعات ومنهم والدي.

كان من جيرانه مقابلاً له الشيخ صالح بن أحمد الخريصي وأخواه عبدالرحمن وعبدالعزيز، فكانوا يخرزون في دكانهم، والخرازة هنا تعني بالدرجة الأولى خرازة النعال، أي صناعة الأحذية.

وكان الشيخ صالح وأخوه عبدالعزيز يتدارسان القرآن وهما يعملان في الخرازة، وكيفية خرز الخراريز في ذلك الوقت أن يجلس الرجل منهم إلى ما يشبه المنصة الصغيرة من الخشب ذات ظهر أملس، وأحياناً تكون من الحديد الأملس الظهر فيضع الجلد الذي يصنع منه النعال على هذه المنصة أو المائدة الصغيرة المتطامنة ويخرزه بالمخراز وهو الذي يثقب النعل لأنه من الحديد القوي المحدد الرأس ثم يأخذ الخراز طرف السير الذي يخرز به وهو كالسلك من القد الذي هو من جلد غير مدبوغ ويدخله في ذلك الثقب وهكذا.

كانت الصناعات هي الوسيلة الوحيدة للعيش المضمون بعد المال الحاصل الذي هو من الذهب والفضة ولكنه أي المال لا يكاد يوجد إلاّ عند قلة من الناس، وحتى الذين هو عندهم وسيلتهم الرئيسية لتنميته هي المداينة مع الفلاحين، وهم يرابون معهم أو يقربون من الربا في مسألة التورق وهي البيع إلى أجل مقابل زيادة الثمن فإذا أراد فلاح أن يستدين من تاجر نقوداً يحتاجها لشراء بعير لفلاحته بديل من بعير مات أو عجز لسبب ما فإنه يذهب إلى التاجر ويقول له: إنني أريد دراهم ديناً فيتفقان أولاً على المعاشرة وهي النسبة العشرية للربح هل هي العشر اثنعشر أو ثلاث طعشر وذلك حسب ملاءة المستدين، وأغلب الفلاحين لا ملاءة لهم أي ليست عندهم نقود، ولا يتوقع أن يحصلوا عليها.

فإذا اتفقا على المعاشرة باع التاجر على المستدين سلعة تساوي في السوق مائة ريال بمائة وعشرين أو مائة وثلاثين إلى الدور أي إلى السنة القادمة.

وهنالك مبايعات ومداينات تقشعر منها الجلود، ولكن تلك وسيلة التجارة وقد شرحت ذلك بأسلوب قصصي في كتابي القصصي (المستدين).

ولا أريد أن أتوسع في حال الداين والمدين لأن ذلك يخرجني عن المقصود، وإنما أقول إن الصناعة كما قال العلماء الأوائل أمان من الفقر، ولكنها هنا أمان من الجوع، أما الفقر فإن بين أرباب الصناعات من يعتبر فقيراً بمعنى أنه لا يملك نقوداً سائلة، غير أن الذي يكون من الناس كذلك في ذلك الزمان يعتبر سعيداً لأنه ضمن على الأقل ألا يجوع أو يجوع عياله.

ونعود إلى ذكر الشيخ صالح بن أحمد الخريصي الذي صار بعد ذلك رئيس محاكم القصيم ومن أكبر العلماء العاملين في بلادنا فنقول:

إن دكانه كان مقابلاً لدكان والدي، وكان طول بقائه في الدكان يقرأ القرآن أو يكون معه كتاب يمسك به أحد إخوته وغالباً ما يكون من كتب العقيدة أو الحديث، وكان مشهوراً بالورع ومحبوباً هو وإخوانه من الناس، لأنه عف اللسان، كاف عن أذى الناس كما هي صفة المتدينين الورعين.

لذلك كان من يستعصي مرضه من الناس أو يعتقدون أنه أصيب بنفس عاصية والنفس العاصية هي التي لا تستجيب لقراءة الناس المعتادين، وكذلك من به مس مما يسمونه السحر، وعجز السحرة عن حله، والسحرة قليل، ولكن السحر معروف أي أن الناس عندنا عندما عقلت الأمور لم يكونوا يعرفون رجلاً أو امرأة بالسحر بمعنى أنه يمارس السحر، لكنهم كانوا يعرفون السحر ويرددونه وينسبون ذلك إلى بعض البلدان في خارج

المنطقة، و أذكر أن جاراً لنا ذهب إلى الجوف وأقام بها ثم جاء معتل الصحة فقال الناس: إنه مسحور.

كان الشيخ الخريصي يقصده المرضى المزمنون ليقرأ عليهم لأنه معروف بطيب المأكل أي أنه لا يأكل إلا الحلال، لأن كسبه من عمل يده، وهو إلى ذلك متدين ورع وحافظ للقرآن الكريم.

حدثني جاري عبدالله بن سليمان العلي الطرياق أنه كان قد أخذ أموالاً من الأثرياء منها (٥٠٠) جنيه ذهباً من أحمد العييري قال: فاشتريت بتلك النقود إبلاً وبعت بعضها في بريدة وكان اشتراها من خارج المنطقة ثم بعت واشتريت حتى كسبت فلبست لباساً جيداً وعرف أناس كثير من المتعطلين ذلك فأصابوني بالعين قال فمرضت قليلاً ثم أصاب نصف جسمي الأسفل ما يشبه الشلل بحيث لم أعد أستطيع تحريكه، بل الأدهى من ذلك أنني لا أستطيع أن أتحمل أن يمسه أحد ولا بطرف ثوبه فضلاً عن يده.

قال: فأشارت خالتي فلانة وهي أخت والدته أن يذهبوا بي إلى الخريصي وأمه، تريد الشيخ صالح الخريصي ووالدته لأنها أيضاً عبدة صالحة ورعة مشهورة بذلك، قال: والمشكل أنني لا أستطيع الذهاب بالركوب والخريصي وأمه لا يأخذان أجراً ولا أية مكافأة على من يقراءن عليه حتى ولو أعطوا ذلك رفضوه لذلك لابد من أن يذهب إليهم من يريد أن يقرءوا عليه.

قال: فاجتمع ستة من الرجال الأقوياء من أهل بيتنا وأقاربنا وحملوني معترضاً على ظهر الحمار وقد أمسكوا بي من كل جهة وأنا أصيح من الألم لأن كل حركة كانت تؤلمني ولو كانت قليلة فضلاً عن حركة سير الحمار التي هي شديدة.

قال: وأدخلوني في بيت الخريصي فبدأ يقرأ عليَّ هو وأمه بعد أن ابتعد الذين معي عن المكان فشعرت بالراحة قليلاً.

ثم مازالوا يترددون بي على الخريصي وأمه للقراءة عليّ لمدة خمسة أيام حتى شفيت تماماً في اليوم السادس وصرت أمشي وأركض، ولم أحس بمثل ذلك المرض حتى اليوم.

كان عبدالله الطرياق حدثني بذلك بعد أن تجاوز عمره الثمانين ثم مات بعد ذلك بمدة يسيرة.

شيخي الخريصي:

يعتبر الشيخ صالح الخريصي أول شيخ جلست عليه ليس للعلم، وإنما لتعلم كيفية تلاوة القرآن الكريم.

إذ كان والدي قال للشيخ صالح الخريصي في عام ١٣٥١هـ ولم يكن اسمه الشيخ وإنما كان الناس يسمونه الأخ صالح الخريصي مثلما كانوا يسمون غيره من طلبة العلم إذا المشيخة أو الشيخة بلفظهم لا تطلق إلاّ على العالم الكبير أو الذي تولى القضاء.

طلب والدي من الشيخ الخريصي وبحكم الجوار في الدكان وإلا فإن بيته بعيد عن بيتنا إذْ بيته في حارة (الحويزة) بتشديد الزاي وبيتنا في شمال بريدة القديمة أن يسمح لي أن أقرأ عليه في تلاوة قصار السور للتجويد لأن المطوع في المدرسة التي هي الكتّاب هو دون الشيخ في معرفة تلاوة القرآن الكريم.

فصرت أقرأ عليه وهو يخرز أي يعمل في صنعته، فكان يصغي إليَّ ويرشدني إلى ما ينبغي أن أتلوه من لفظ القرآن الكريم من دون شرح لمعانيه، لأنه لا أحد يأتي على ذهنه آنذاك أن يعرف معاني القرآن الكريم، إلاّ المشايخ في دروسهم العلمية.

وكان الشيخ صالح الخريصي يقرأ مع الإخوان الذين يراد بهم طلبة العلم على شيخ الجميع الشيخ عمر بن محمد بن سليم قاضي بريدة وتوابعها وأحد علماء نجد الكبار الذين كان الملك عبدالعزيز يخاطبهم فيما يريد أن يخاطب العلماء به ويكتب لهم الرسائل وهو شخصية قوية مهيبة، كما كان يقرأ على الشيخ عبدالعزيز العبادي الذي كان طلبة العلم من المبتدئين والمتوسطين يقرءون عليه الدروس، ولكن ذلك كله يكون في غير وقت العمل أي في أطراف النهار وبعد صلاة الظهر.

وبهذا الاعتبار يكون الشيخ صالح الخريصي هو أول شيخ قرأت عليه ولكن ذلك اقتصر على تلاوة القرآن الكريم وسني آنذاك لا تؤهلني إلى أن أكون تلميذاً ناجحاً ولكن كان والدي رحمه الله أكثر ابتهاجاً مني إذْ كان يحضر قراءتي القرآن على الشيخ الخريصي لذلك في طرب، وإن كانت قراءة مملؤة بالعثرات، فكان الشيخ الخريصي يرد عليَّ ما أغلط فيه مبيناً اللفظ الصحيح له.

ثم انقطعت عن ذلك عندما ألحقني والدي بمدرسة (محمد بن صالح الوهيبي) في جنوب بريدة عام ١٣٥٦هـ ولكنني عاودت التتلمذ على الشيخ الخريصي في حلقات الدروس التي كان يعقدها للكل في مسجده بالحويزة ابتداء من عام ١٣٦٢هـ وإن لم يكن ذلك منتظماً وكنت قد كبرت وصارت قراءتي في الفقه والتوحيد والحديث والنحو، وقد علت رتبة الشيخ صالح فترك الدكان وترك معه صنعة الخرازة فيه، لأن وقته صار مشغولاً بالعلم والتعلم، إذْ صارت دروسه على مشايخه تزيد وصار طلابه والمستفيدون منه يزداد عددهم.

والجيران الآخرون:

من الجيران الآخرين لدكان والدي (عقلا بن موسى الحسين) وهو حافظ تماماً للقرآن الكريم يختم القرآن مرتين أو ثلاثاً في رمضان لأنه صار

إمام مسجد ابن شريدة بعد وفاة شيخه صالح بن كريديس، فصار على عادة الأئمة في ذلك الوقت يقرأ القرآن حفظاً وهو يؤم الناس في التراويح والقيام في الليالي العشر الأخيرة من رمضان.

وبالمناسبة نقول: إننا لم نكن نعرف في ذلك الوقت إماماً يؤم الناس في رمضان للتراويح والقيام ويقرأ القرآن نظراً من مصحف، وإنما كان جميع الأئمة يقرؤون القرآن حفظاً، بل كان من شروط من يؤم في مسجد أن يكون حافظاً للقرآن، وذلك لكثرة حفاظ القرآن الكريم وقلة المساجد وحرص الناس على حفظ القرآن.

والشيخ عقلا الحسين لم يكن من المشايخ الذين لازموا كبار العلماء، وإنما كان يقرأ على شيخه وشيخنا صالح بن كريديس، وخلفه على الإمامة بعد موته وظل إماماً لمسجد ابن شريدة حتى توفي عام ١٤٠٢هـ رحمه الله.

ومن طريف ما أذكر عن قرائة الشيخ عقلا أنه كان يقرأ وهو الإمام على الجماعة بعد آذان صلاة العشاء وقبل الإقامة تفسير ابن كثير الذي هو من أربع مجلدات جرياً على عادة له قديمة كان شيخه ابن كريديس الإمام السابق للمسجد قد جعله يقرأ من أول التفسير إلى أخره سنوات عديدة ثم يعود إلى قراءته مرة أخرى من أوله، وقد وصل مرة إلى تفسير الآية الكريمة ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل..**﴾ الخ السورة.

وقد أورد ابن كثير قصة أبرهة ومن معه من الجند الحبشي ومن شايعهم من العرب وكانت الحبشة تحكم اليمن في ذلك الوقت الذي لا يمكن جهله إذا عرفنا أنه حدث في العام الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل.

وذكر ابن كثير أن (نفيلاً) من العرب أهل المنطقة هو الذي كان دليل الجيش الحبشي وأن ذلك الجيش الحبشي عندما أرسل الله عليه جنداً من جنده عمه الاضطراب وصار كل من فيه يطلب النجاة ولكنه لا يهتدي إليها فيسأل عن نفيل المذكور حتى يدله على طريق الهرب لذلك قال نفيل:

فكل القـوم تسـأل عن نفيل   كـأنَّ علـيَّ للحبشـان ديـنا

وقد سمعت (عقلا) يقرأها كأنَّ عليَّ للجيشان دينا بجيم بعدها ياء مثناة لأنها مكتوبة هكذا، ولم أكن أعرف النحو في ذلك الوقت لصغر سني ولكنني حفظت هذا البيت كما سمعته لأنه يدل على مثل كان شائعاً عند الناس وسمعته من أبي ومن غيره أكثر من مرة وهو (كل القوم تسأل عن نفير) هكذا تلفظ به العامة بالراء في آخره لأنهم لا يعرفون نفيلاً ولا يعرفون أصل المثل.

ثم أنسيت هذا البيت حتى دار الزمن دورته بالقراءة في تفسير ابن كثير ووصل الشيخ عقلا إلى تفسير السورة نفسها وذلك بعد نحو خمس سنين أو ست فقرأها كما قرأها في الأول (كأن عليَّ للجيشان دينا) وكنت تعلمت النحو وعرفت أن ذلك لا يجوز لأن (جيشان) تثنية جيش ولا يمكن أن تكون مرفوعة بالألف مثلما هي حالة المثنى في حالة الرفع.

وإنما هي (الحبشان) بحاء مهملة وباء موحدة بعدها ومعناها: الحبشة، جمع حبشي.

وقد أخبرت الشيخ (عقلا) بذلك.

ومن طرائف ما عرفناه عن (عقلا) أنه كان قليل السهو في الصلاة وقد مضت مدة ربما كانت سنوات لم يتطرق إليه السهو في الصلاة مما جعله محل إعجاب الجميع من المأمومين.

ثم حدث أن تزوج بامرأة ثانية على زوجته الأولى فلما كان من غد، أي في ذلك اليوم الذي يلي ليلة زواجه من المرأة الجديدة سها في الصلاة، فتندر الناس بذلك ما بين قائل: إن تلك الزوجة خلبت لبه وشغلته عن تذكر ركعات الصلاة، ومن قائل: بل إنه لم يكن مرتاحاً إليها لذلك سها في صلاته.

وهكذا كانت الأمور في ذلك الوقت تسير عفوية، ولكن العامة يجعلون من الحبة قُبة.

وأذكر أن الشيخ (عقلا) قوي الجسم، ممتلئه دون ترهل فكان يطيل في قيام التهجد في العشر الأخيرة من رمضان وبخاصة في الركوع الذي كان يشق على بعض كبار السن ومن يعانون من مرض فطلبوا شخصاً يكلمه قائلين: إنه رجل قوي الجسم قادر على إطالة الصلاة، ولكننا لسنا كذلك، غير أنهم لم يجدوا من جماعة المسجد من يكلمه في ذلك.

وكلامهم هذا ليس دقيقاً، لأن بإمكان من لا يتحمل القيام الطويل أن يجلس بعض الوقت بأن يصلي قاعداً لأن ذلك جائز في النفل من الصلاة، أي في صلاة التطوع كصلاة التهجد، غير أنهم لا يريدون أن يظهروا أمام الناس بمظهر العاجزين أو المتكاسلين الذين لا يؤدون صلاة التطوع قائمين.

ومن طريف ما يتعلق برمضان وإمامة الشيخ (عقلا الحسين) أنه كان يقرأ كتاب وظائف رمضان وكان ذلك ليلة الحادي عشر من رمضان فقرأ الحديث الذي فيه إن العشر الأول من شهر رمضان هي عشر المغفرة وإن العشر الثانية هي عشر الرحمة وإن العشر الأخيرة هي (عشر العتق من النار) والمراد من ذلك الليالي العشر من شهر رمضان.

فعلق أحدهم على ذلك بقوله: يا إخواني (المغفرة راحت) يريد عشر الليالي التي فيها المغفرة فاغتنموا الليالي الباقية في الزيادة في العمل

الصالح، فصارت نكتة بين غير المتدينين منهم قائلين، المغفرة عند الله باقية وهو لا يريد ذلك كما هو ظاهر.

و(عقلا الحسين) متدين ورع حافظ للقرآن كما قدمت وهو سليل أسرة متدينة حتى إن جده والد أبيه أسمى أولاده بأسماء الأنبياء مما ليس مألوفاً في بريدة في ذلك التاريخ فأحدهم اسمه (هارون) والثاني موسى والثالث يوسف.

وسمى ابن ابنه يوسف (يعقوب) ولم يكن الناس لجهلهم باللغة يقيمون كلمة يعقوب على لفظها القرآني بل كانوا يقولون (اعقوب) بهمزة بديلة عن الياء.

مما حدا ببعض محبي النكت من غير المتدينين أن يقول لوالده: أنت سميت ولدك (اعقوب) فقال الأب وهو يوسف: نعم.

فقال الرجل: وإذا جاك بنت تسميها (اعقوبة) وهو اسم إعقوب مؤنثاً، فضحك منه وقال: أنا لن أسمي ابنتي يعقوبة حتى يكون اسمها (عقوبة).

وكل هذا من باب المزح والتنادر الذي لا يقوله إلا الشبان أو غير الورعين من الكبار.

وجار آخر:

ومن أرباب الدكاكين الجيران محمد ابن عبدان وهو محمد بن سعيد بن عبدان والد الأستاذ أحمد العبدان الفنان المشهور الذي يرسم الرسوم المعقدة الكثيرة على بيضة واحدة، ومن ذلك أنه كتب مرة ميزانية الدولة كلها على بيضة واحدة، وأهداها إلى وزير المالية.

وقد نشرت الصحف والمجلات مقالات عنه وعن فنه، وألف شقيقه عبدالعزيز كتاباً عنه، ثم ألف هو كتاب (النقش على البيض) أو قال الرسم على البيض وهما مطبوعان.

ومحمد العبدان هو زوج عمتي منيرة فأحمد العبدان وإخوانه وهم أبناؤه هم أبناء عمتي ووالدي خالهم.

ومن الطرائف أنني ذهبت مرة إلى (موسى بن عبدالله العضيب) الذي كان مديراً للمعهد العلمي في بريدة ثم صار من كبار الوجهاء ورجال الأعمال التجارية فيها، في قصره الذي بناه في شرق بريدة على شارع الطرفية فحضر أحمد العبدان وكان موسى جالساً على يميني وأحمد العبدان على يساري فقلت لهم متعجباً إن كل واحد من هذين اللذين بجانبي جدي هو جده وإن لم يكونا ابنا جد واحد ولا ابنا خالة!

وذلك أن جد موسى العضيب لأبيه هو موسى العضيب والد والدتي أي هو أيضاً جدي لأمي، وجد أحمد العبدان من جهة أمه هو جدي والد أبي عبدالرحمن العبودي، وهذا من غرائب المصادفة.

ومحمد العبدان عمله الرئيسي في دكانه إصلاح البنادق على أنواعها وهو عمل مربح، غير أنه ضيق لقلة الناس الذين يقتنون البنادق وضعف حالهم الاقتصادية، واشتهر عنه بأنه ماهر في عمل الأختام والكتابة عليها لأنه ذو خط جيد.

وهو عم الشيخ القاضي الشهير عبدالله بن عبدالعزيز العبدان الذي تولى القضاء في عدة بلدان منها أبها وعنيزة والزلفي واشتهر بأشياء قلما توجد في القضاة، وهي إجادته للرمي بالبندق والسيارة تسير فكان يصطاد الظباء والأرانب وهو إلى ذلك كريم كرمه معروف.

وقد نشأ في بيت عمه (محمد العبدان) هذا وذلك أن والده عبدالعزيز العبدان توفي في عنيزة وخلف ولداً هو عبدالله الذي صار الشيخ عبدالله بن عبدان وأختاً شقيقة له، وكانت أمهم شابة، فذهب محمد العبدان من بريدة إلى عنيزة على حمار عليه مرحلتان وهما كالزنبيلين المتقابلين على ظهر الحمار توضع فيهما الأشياء المتعادلة فجعل ابن أخيه في مرحلة وابنته في مرحلة أخرى، لأنهما صغيران، وأحضرهما إلى بريدة وبقيا في بيته حتى شب الشيخ عبدالله وطلب العلم وأدركه، فأرسله المشايخ آل سليم إلى بعض هجر البادية مرشداً وقاضياً، وأما أخته فإنها بقيت في بيت عمها حتى بعد وفاته.

مات محمد بن سعيد العبدان عام ١٣٥٣هـ.

وبجانب دكان ابن عبدان دكان صالح الغليقة وهذا الرجل ماهر في عدة أشياء ويحسن صناعات كثيرة كما سبق ذكره، ومنها تقدير الشجاج.

وذلك أن الأعراب عندما عقلنا الأمور في عام ١٣٥٠هـ، وبما بعدها بقليل كانت طريقة معيشتهم لم تتغير منذ قرون فكانوا يتقاتلون على المراعي وعلى الموارد في الصحراء، وتكون بينهم جراحات دون القتل، فيشتكي المجني عليه مع جماعته إلى أمير بريدة الذي يحيلهم إلى القاضي، فإذا كانت الجراحات في الأيدي أو الأرجل أو نحوها مما هو ظاهر كان الحكم فيها واضحاً للشيخ، إلاّ فيما يتعلق بالشجاج التي تكون في الرأس فإنها غامضة لأن الأعراب يتركون شعور رؤوسهم تنمو كيفما اتفق وأحياناً تكون كثيفة تخفي ما تحتها من الرأس، وفي الشرع تختلف كل شجة من الشجاج في الرأس، والشجاج هي الجروح في الرأس التي تنشأ عن ضربة بعصا أو حصاة أو حتى سلاح حاد، أراد صاحبه به القتل، فلكل شجة حكمها، فهناك الشجة التي تكون كالكدمة دون أن تشق الجلد، والأخرى التي تشق الجلد ويسيل منها الدم والأكثر منها التي تصل إلى

العظم، بحيث يبين منها العظم فضلاً عن الخطيرة الأخيرة التي تتهشم العظم أو تجعل فيه شرخاً أو شطباً.

لذلك كان لابد للقاضي من أن يعرف نوع الشجة حتى يحكم على الجاني بديتها لأن كل شجة لها دية تختلف عن الدية التي للأخرى، والدية هي التعويض المالي للمجني عليه، ولا يعرف تقدير هذه الشجة ومعرفة مراتبها وأسمائها في الشرع إلا صالح الغليقة هذا، لذا يرسل الشيخ الذي هو القاضي مع رجال الأمير الأعراب الذين حصلت عليهم الشجاج إلى صالح الغليقة ليبين من أية درجة هي من الشجاج، ولا يشاركه غيره في هذه المعرفة.

ومع كل ما يحسنه من الأعمال فإنه لم يصبح ثرياً، ولكنه يملك بيتاً له يسكنه في شمال بريدة القديمة.

وأسرة الغليقة متفرعة من أسرة المضيان الكبيرة التي ترجع إليها أسرة الوشمي و(الحمر) ويرجع نسبهم إلى المضيان من عنزة وهم طائفة من عنزة نزحت من نجد إلى بادية العراق منذ وقت غير بعيد.

جار الجار:

وإلى الشمال من دكان ابن عبدان ودكان الفليقة يوجد دكان (سليمان أبوطامي) و(أبوطامي) لقب لحق بسليمان هذا خاصة، وذلك أنه سافر إلى حائل يطلب العمل وبقي فيها فترة مثلما كان غيره من أهل بريدة، فكان يشبه شخصاً من أهل حائل معروف بكنيته (أبوطامي) فصار أهل حائل يسمونه (أبوطامي) واشتهر بذلك ونسي لقب أسرته الأصيل وهو العويد الذي كان يقال لهم (العويد الفويس) إضافة إلى الفويس: تصغير فأس وذلك للتمييز بينهم وبين أسرة أخرى يقال لها (العويد) كانت أقدم سكنى في بريدة من (العويد الفويس) ومنهم الشيخ عويد ومنهم مدير البنك الزراعي في بريدة فأولئك عويد آخرون.

ومن الطريف أنه على حداثة تلقيبهم بلقب (أبوطامي) فإن الناس حذفوا منه (أبو) وبقي اسمهم (الطامي) فقط تماماً مثلما فعلوا في (أبورقيبة) الذي هو لقب راشد بن سليمان السبيهين حيث حذف الناس (أبو) وصار اسمهم (الرقيبة) فقط.

وسليمان أبوطامي هذا خلف أبناء نجباء أكبرهم محمد رأيت سيرة كتبها عن حياته وحياة والده، وهي فريدة في بابها ولا عيب فيها إلاّ في صعوبة قراءتها لأنها بخطه وخطه رديء.

وأخوه إبراهيم ألف عدة مؤلفات طبعت، وفيها أشياء تكتب لأول مرة، وكان له فضل السبق إلى تأليفها وهو إخباري مجيد إذا تكلم عفواً بدون تكلف غير أنه إذا كتب باللغة الفصحى جاء أسلوبه غير مشرق، وكان يكثر من النقول من كتب التراث، ولا يستطيع الإشراف على تجارب الطبع فتأتي كتبه كثيرة الغلط والتحريف.

وكنت أشرت عليه ألا ينقل أي شيء من كتب قديمة، وإنما يركز على تسجيل ما يحفظه من الأخبار والحكايات عن الناس، وهو كثير فلم يوافق على ذلك، ولو فعل لكان تمكن من تسجيل مقادير كبيرة من الحكايات والأخبار العامة والأخبار الخاصة بالشخصيات القصيمية، لأنه مثلنا قد عاصر العصرين القديم والحديث في الحياة النجدية.

وهناك أخوهم عبدالله وهو أول سعودي ينشئ إذاعة خاصة عرفت (بإذاعة طامي) واستمرت تعمل مدة طويلة في الرياض، وكان فناناً ينقش الأرائك والمتكآت.

وإذا تجاوزنا دكان أبو طامي الذي يعتبر في وسط ذلك السوق، وقعنا في دكاكين صغيرة متلاصقة يملك عدداً منها واقعاً في الجهة الغربية من السوق آل فيروز، وهم أسرة عريقة في بريدة، ولكن لم يسمع عنهم كثير

خبر في الأزمان الأخيرة، وربما كان ذلك لقلة في نموهم العددي، ولم يكن لهم دكان يفتح للتجارة منها.

ولا نستطيع أن نذكر كل أهل الدكاكين في هذا السوق الشمالي القديم، ولكننا نعرج في شماله على دكان (محمد المنيصير) والمنيصير: تصغير منصور وهو رجل بدين، لذلك قال لوالدي مجنون يعرف بلقبه (أخو هيا) واسمه دخيل، ولا أريد أن أذكر اسم أسرته قال لوالدي وأنا أمشي صغيراً معه إلى دكانه: يا أبو محمد، إفطن لولدك محمد عن ابن (منيصير) لا يأكله تراه يأكل العييل، والعييل: تصغير عَيِّل، وهو الطفل.

فقال له والدي: وش يدريك؟ يريد أن يعرف إجابته (المجنونة) فقال: أنت ما شفت بطنه كبير تراه من العييل اللي أكلهم!

وبعده إلى الشمال وفي نهاية السوق أربعة دكاكين أو ستة، أهلها ليسوا من الخرازين وليس فيها ما يخرز، آخرها من جهة الشمال على الجانب الشرقي من السوق دكان (محمد الناصر السالم) من السالم الذين هم أبناء عمنا، ونظراً لكثرتهم صارت لهم ألقاب فهذا يلقب الرقيطا على لفظ تصغير الرقطا، ولا أدري سبب تلقيبه بذلك وهو ممن لم يعش لهم أبناء، وإن كان رزق ببنت أو بنات، وكان يشكو ذلك لوالدي.

ويقابله من جهة الغرب من الشارع دكان (صالح.... السويل) باللام في آخره، لأن السويد- بالدال في آخره- أسرة أخرى.

وصالح السويل هذا رجل ثقة يحب الناس التعامل معه لصدقه وأمانته، ولذا كان بعض أهل القرى يجلبون إليه ما ينتجون من رطب أو تمر أو خضرات، وحتى قمح أو ذرة يبيعه لهم.

وكان على خُلق عظيم لذا أحبه الناس.

وإلى جانبه من جهة الجنوب دكان شخص آخر من أبناء عمنا آل سالم اسمه (محمد بن مبارك) و(المبارك) فرع من أسرة السالم معروف ورد ذكره في الوثائق والمكاتبات القديمة، وليس في دكانه كما أعرفه بضائع تستحق الذكر، وربما كان يشتغل في مداينة الفلاحين.

ومن الطريف في شأنه أنني لم أكن أعرف له إلا ولداً واحداً اسمه عبدالرحمن ونعرفه بـ (دحيم) وكان يظهر أنه رزق به على كبر، ولم نعرف له ابناً آخر مما عرفناه في أمره.

إلا أنه في عام ١٤١٩هـ قال لي الدكتور إبراهيم بن عبدالعزيز الغصن، والغصن هؤلاء من أبناء عمنا، إذْ جدهم هو (غصن بن ناصر السالم) والأخ عبدالكريم بن محمد السالم وهو من فرع من السالم كان يلقب (القميدي) ولكن نسي ذلك الآن، وصار اسمهم (السالم) فقط ذكر لي ما لم أكن أعرفه من قبل وهو أن أسرة من أبناء عمنا السالم موجودة في الكويت، صار يقال لهم الصليهم وأن خالد بن ناصر الصليهم منهم هو وكيل وزارة التربية والتعليم لشئون التعليم في الكويت، وأنه طلب منهما زيارته في الكويت ليتعرف أبناؤه وإخوانه على أبناء عمهم (السالم) وطلبوا أن أرافقهم لمدة يومين إلى الكويت، ففعلت ذلك لأنني كنت أود رؤية الكويت، إذْ لم أكن رأيته بعد هجوم العراق عليه.

وسافرنا فاستقبلنا الرجل جزاه الله خيراً استقبالاً كريماً واستضافنا في بيت له واسع، وعرفت ما لم أكن أعرفه وهو أن جده اسمه (مبارك بن محمد المبارك) وأن محمد المبارك صاحب الدكان هذا هو جد والده، ولكن والده جاء إلى الكويت صغيراً وكان كبير الرأس، وكان لصغره يكون حاسر الرأس في بعض الأحيان فسماه أهل الكويت (صليهم) والتسمية باسم صلهم وصلهام لكبير الرأس معروفة في لغتنا العامية فغلب عليه اسم صليهم لاسيما أنه لم يكن له أبناء عم قريبين منه يعرف باسمهم.

ولما قلت للأستاذ خالد: إنني أعرف جد والدك (محمد المبارك) تعجب كثيراً وأخذ يكرر السؤال نفسه: أنت تعرف جد والدي؟

فقلت له: نعم، وكان صديقاً لوالدي، لأنه رجل لبيب لا يأتي منه إلا الخير.

قلت له: وأعرف ابنه عبدالرحمن مع أنه لا عجب في معرفتي له لأنه صغير السن، فذكر أنه عم والده وأنهم لهم صلة به.

وهناك واقعة مماثلة حدثت لي في بريدة، وذلك أن أهل بريدة وعلى رأسهم أمير منطقة القصيم الأمير فيصل بن بندر بن عبدالعزيز أقاموا حفلة تكريم لي في النادي الأدبي في بريدة، وقد تكلم عدد منهم على رأسهم الأمير ورئيس النادي الدكتور حسن بن فهد الهويمل، والدكتور أحمد بن صالح الطامي عميد القبول والتسجيل في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم ثم تكلمت أنا مطولاً.

وقد ذكر لي الأستاذ محمد بن عبدالله المشوح أنه سجل وقائع هذا الاحتفال في كتاب سيطبع فيما بعد.

والذي حدث أنه بعد أن انتهى الاجتماع الذي حضره جمع غفير من المثقفين فيهم تلاميذ لي في المعهد العلمي الذين أصبحوا متقاعدين في الوقت الحاضر وغيرهم من الشباب ومتوسطي العمر، فصاروا يسلمون عليَّ من دون أن أعرفهم لأنني قد انتقلت من بريدة إلى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة في عام ١٣٨٠هـ أي منذ ٤٣ سنة، فالذين كانت أعمارهم آنذاك عشر سنين قد صارت الآن خمسين ولا أعرفهم، والذين أصغر منهم لا أعرفهم بطريق الأولى، فكان بعضهم يعرف نفسه بأنه فلان الفلاني ولكن بعضهم لا أعرف حتى آباءهم فكنت أسألهم عن أسماء أجدادهم.

فكان من ذلك أن شاباً في وجهه لحية خفيفة سلم عليَّ وقبل جبهتي وقال: أنا فلان العدوان.

والعدوان أسرة معروفة من (آل أبوعليان) حكام بريدة السابقين، وآخر من تولى منهم إمارة بريدة هو عبدالله بن عبدالعزيز بن عدوان، الذي قتل في قهوة الضبيعي في بريدة في عام ١٢٧٦هـ، قتله أبناء عمه من آل أبوعليان يريدون انتزاع الإمارة منه.

فقلت للرجل: ما اسم والدك؟ فقال: فلان، فلم أتذكره، وقلت له: اسم جدك؟ فقال: عدوان، فقلت له، عدوان هذا كان رجلاً رضي النفس حسن الخلق.

فتعجب الرجل وقال: أنت تعرف جدي عدوان؟ فقلت له: إنني أعرف والد جدك عبدالعزيز العدوان معرفة صحيحة، فقد كان صديقاً لوالدي فأصابه في آخر حياته مرض عطل رجليه عن المشي فصار لا يأتي إلى بريدة، واعتكف في مكان لهم يقال له ملك أبوخشرم وهو المعروف الآن بهذا الاسم لأن (أبوخشرم) لقب على ذلك الرجل الذي هو جد والدك.

وقال لي والدي، وأنا صغير: يا وليدي نبي نروح لأبوخشرم لأنه رفيقنا، ولا يقدر يدخل لبريدة، وذهبنا بالفعل إلى محله سيراً على الأقدام ، وقد ذكرت ذلك في كتاب (رحلات في البيت).

العودة للكلام على الدكاكين:

إذا انقطع سوق الخراريز الذي هو السوق الشمالي القديم، وقد انقطع فعلاً قبل نهايته، إذْ نهايته من جهة الشمال دكاكين ستة ليس فيها خرازون بدأ سوق صغير كان يسمى سوق الشمال مع أن الحوانيت فيه لا تزيد على عشرة في كل جانب منه خمسة وهو سوق لبيع الخضرات في الصيف والحبوب ونحوها في الشتاء، وفيه بقالة مشهورة لعبدالعزيز السالم،

كان الناس يقبلون على الشراء منه لكونه (يطلع) الذي ليس معه نقود، و(الإطلاع) هو البيع بدون نقد حاضر، وإنما يسمح البائع للمشتري أن يأخذ منه السلعة، ويدفع ثمن ما أخذه بعد ذلك، وهذه طريقة غير مرغوبة للبائعين لأن بعض المشترين حتى ولو طيباً يريد أن يدفع ما عنده للناس لا يستطيع ذلك للحالة الاقتصادية السيئة، ولذلك لا يبيع بعضهم إلا بالنقد، ويعتذر لمن يطلب منه أن يبيعه من دون أن يدفع الثمن حاضراً بأن عليه حِلْفاً أي أنه قد حلف ألا يبيع شيئاً إلا بدفع ثمنه نقداً حال البيع وأنه لا يستطيع أن يخالف ما حلف عليه.

وبعضهم (يطلع السنعين) والسنعين هم أهل السنع بمعنى حسن المعاملة مع الناس فيحضرون ما للناس عندهم إذا وجدوه دون مطل أو تأخير، فضلاً عن الخصام والمنازعة.

وبهذه المناسبة أذكر أن صاحب دكان كالبقالة عنده قهوة وهيل في شمال هذا السوق وكان دكانه هو آخر دكان في غربي جهة الشمال اشترى منه الشاعر سليمان بن شريم وكان يسكن في بريدة في ذلك الوقت قهوة، لما أخذها ابن شريم قال لصاحب الدكان: تراي ما معي فلوس هالحين لكن إن شاء الله أجيبهن لك بعد يومين، فما كان من صاحب الدكان إلا أن أخذ القهوة منه، وأعادها إلى المحفر وهو الزبيل الذي كان أخذها منه.

وذهب ابن شريم منكسراً خالي الوفاظ من القهوة، وإذا كان قد عزم أحداً في ذلك اليوم أو ليلته فإنه يفكر في كيفية الحصول على القهوة لضيوفه.

وهذا السوق الصغير الذي يسميه بعضهم سوق الشمال يفصل بين (سوق الخراريز) و(سوق الصناع) أو (سوق الصنانيع) وهي جمع صانع على اللفظين كليهما.

سوق الصّناع:

وسوق الصنَّاع يحتاج إلى كتاب بذاته أو بحث مستقل برأسه يكتب عنه وهو يستحق ذلك دون أدنى شك، لأنه سوق متصل كبير، بالنسبة إلى المدن النجدية لأنه تصنع فيه كافة الأدوات والآلات التي يحتاجها الناس في الزراعة والسفر مثل القداديم- جمع قدوم- والفؤوس والسكاكين والمخالب - المناجل- والسكاكين والمساحي- جمع مسحاة- والفواريع- جمع فاروع.

وصناعة المسحاة فيه شاقة كنت أراقبها بعد ذلك وأنا صغير فأقف أتفرج برؤية صانعيها وهم يصنعونها من قطعة حديد خام كانت تأتي إليهم من الخارج وإن كان ذلك على قلة، وإنما كانت تجلب عليهم في وقت من الأوقات قضبان الحديد التي كان يسير عليها قطار الشام إلى المدينة المنورة.

فيضعون القطعة الكبيرة من الحديد الخام على كير ضخم وهو موقد النار الذي ينفخ عليه بالمنافيخ المصنوعة محلياً، ومنافيخ الصناع غير منافيخ القهوة التي ينفخ بها نار القهوة بمعنى النار التي (تسوى) عليها القهوة فمنفاخ الصانع كبير جداً بالنسبة إلى الأول ذو أنبوبة طويلة من الحديد تثبت بالأرض بالحجارة والجص حتى لا يتحرك المنفاخ من كثرة الاستعمال لكونها ثابتة لا تتحرك أنابيبها التي تتصل بالكير حتى النار.

ويكون للكير الكبير منفاخان قد يعمل عليها أثناء إحماء الحديد شخصان أو شخص واحد ينفخ بالمنفاخين معاً في كل منفاخ يد من يديه، وهو صعب.

فإذا أحموا على هذه القطعة الضخمة الحديدية النار أخرجوها منها وقد صارت حمراء لا تفرق بينها وبين قطعة الجمر الكبيرة فوضعوها على (الريبال) وهو السندان، ثم قطعوها بمغراص ضخم يضربه رجل قوي بمقرعة وهي المرزبة الضخمة التي تنفصل عن بقية القطعة الضخمة من

الحديد الخام، وفي الأحيان تبرد قبل أن يكتمل قطعها بالمقراص فيضطرون إلى أن يعيدوها للنار ثانية.

ثم يأتي بعد ذلك تشكيل هذه القطعة على هيئة حران المسحاة وهو مؤخرتها الثقيل الذي يدخل فيه النصاب، نصاب المسحاة وهو يدها الخشبية التي تمسك بها عند الاستعمال، وهذه المساحي تباع في البلاد للاستعمال المحلي لأن الزراع لا يستعملون إلاّ هي في حرث الأرض والبناؤن لا يستعملون إلاّ هي في تحريك الطين وخلطه.

والمساحي والفواريع وأمثالها تعتبر من الصناعات الحديدية الكبيرة، ولكن سوق الصناع تصنع فيه أيضاً الأشياء الصغيرة كالمسامير اللازمة للأبواب من الخشب والحديد والمخايط - جمع مخيط- وهو كالإبرة الكبيرة تخاط بها الأشياء الغليظة كالخياش وبيوت الشعر والأكياس الضخمة من الصوف.

أما إبر الخياطة وهي الإبر الصغيرة المعتادة فإنها لا تصنع عندنا ولكن كان يصنع عندنا المناقيش- جمع منقاش- وهو الذي يلتقط به الشوك من الجسم.

وكذلك تصنع فيه المخاطر- جمع مخطر- وهو قضيب من الحديد في أحد جانبيه عقفة والجانب الثاني محدد الرأس وتستعمل- المحاور، جمع محور- للمحال التي هي البكرات كما تستعمل أوتاداً للخيام وبيوت الشعر.

والصناع قسمان: قسم لا يعمل إلاّ في الحديد، فلا يعمل في الصفر أو النحاس، وهؤلاء قسمان قسم عمله الأدوات الكبيرة وقسم عمله الصغيرة.

وأما النحاس فإن له صناعاً آخرين لو لا ما أخشى من أن لا يريد أنسال الذين أعرفهم من صناع الطائفتين بل طوائف الصناع التصريح بذكر أسمائهم، لأنهم أي الأنسال والأخلاف قد تركوا عمل الأسلاف واستغنوا

عنه بالوظائف الحكومية، أو بالعمل في المحلات التجارية، لأن ذلك أهون مؤونة وأكثر فائدة.

والصناع في النحاس على قسمين قسم وهو الأهم يستورد صفائح النحاس الواسعة من الخارج فيقطعها أي يجعلها قطعاً معروفة عنده بمقاييس مختلفة، ويجعل من هذه الصفائح الأواني النحاسية الجيدة، المنقوشة التي لا يفرق المرء بينها وبين الأواني المماثلة المصنوعة في الأمصار، وقسم من العاملين في النحاس يقتصر عملهم على رب الأواني النحاسية أي طلائها بالقصدير وهو الرصاص الأبيض، فيربون أي يطلون القدور والأواني والدلال التي هي أباريق القهوة.

وإذا مر المرء من سوق الصناع وهو يحادث رفيقه الذي يماشيه فإنه لابد من أن يرفع صوته لأن طرق الأواني والضرب بالمرازب الضخمة للحديد يشوش عليه بصوته، وأذكر أن بيتنا وهو في شمال بريدة إلى الشمال من مسجد ابن شريدة كما قلت كنا نسمع منه ضجة مطارق الصنَّاع واضحة إذا كان الهواء جنوباً من الصناع.

ومن الملاحظ المعروف لنا أن سوق الصناع هذا لا يقتصر إنتاجه على الاستهلاك المحلي، بل كان يرسل منه إلى خارج المنطقة من الشمال والجنوب، ولكن ذلك قليل في ذلك الوقت وهو عام ١٣٥٠هـ، لضعف الاقتصاد في تلك المناطق وكون القصيم أغناها وأكثرها بالحاجات الضرورية التي يصنعها الصناع.

وقد دخل سوق الصناع هذا والصناع الذين يعملون فيه الأدب الشعبي الخيالي عندهم في ذلك الوقت.

ومن ذلك ما كانوا يزعمونه من أن (شباط) وهو الوقت الذي يأتي بعد انقضاء المربعانية التي هي أربعانية الشتاء هو ولد (_المربعانية) بمعنى أن المربعانية هي أمه.

وكان الناس يعانون الكثير من برد المربعانية لقلة الملابس والأغطية وللحاجة إلى العمل في الخارج لبعضهم، فكانوا يفرحون بخروج المربعانية أي انقضاء وقتها لأن معنى ذلك البشارة بانصرام البرد وإن كانت قد بقيت في الشتاء بقايا مؤلمة لهم وهي الشبط، وهما اثنان شباط الأول وشباط الثاني، ومدة كل واحد منهما (١٣) يوماً ثم تأتي بعدهما العقارب وهي ثلاث اثنان منها في فصل الشتاء، وهما العقرب الأوله- الأولى- التي يسمونها (سُمَّ) لشدة بردها والثانية وهي (دَمْ) بمعنى أنها أقل برداً أو أن بردها ليس بالغاً، والثالثة: دسم، لأنها أول فصل الربيع وهي المعروفة عند الفلكيين القدماء بـ(سعد السعود).

وتقول العامة: إن المربعانية عندما أوشكت على الانقضاء أو صت ابنها (شباط) الذي يأتي بعدها قائلة: يا ولدي، يا شباط، أنا انتهيت لكن عليك بأهل بريدة لا ترحمهم بَرِّدهم بكل اللي عندك من البرد، تراك إن كان انت ما بردتهم يدعون عليَّ يقولون: إني شديدة البرد عليهم.

فقال (شباط): سَمِّي يا أمي، والله لأوِّريك وش أسوِّي بهم، ثم انطلق بعزم الشباب، لأن ذلك أول عهده فدخل إلى بريدة من جهة الجنوب الشرقي فوجد (عُقَيْلا) وهم تجار المواشي التي يذهبون بها إلى الشام وفلسطين ومصر ثم يعودون وقد كسبوا أموالاً جيدة وقد اجتمعوا على نيران لهم موقدة أغلبها بحطب الغضا الشديد الحرارة، وعلى النار الدلال المليئة بالقهوة التي كثروا فيها من الهيل.

ورأى عندهم ما هو أهم من ذلك وهي الفراء جمع فروة التي كان (عقيل) يحضرونها من الشام يلبسونها هناك وفي الطريق إلى نجد في الشتاء.

وكان دخول شباط في أول الصباح فرأى صحون الحنيني النحاسية الطافحة بالزيد على النار.

فعاد إلى أمه كئيباً وقال لها: يا أمي، أنا ما قدرت أسوِّي (بهذولى شي)! فقالت له أمه: هذولي يا وليدي عقيل مالك بهم طاقية عليك بأهل الشمال- شمال بريدة- فدخل من الباب الشمالي، وإذا بأول ما يصل إليه سوق الصناع ووجد بعضهم يدلك قدراً، أو إناءً، وبعضهم يجلو قدراً قد انتهى من صنعه بليفة مبلولة بالماء، وليس عليهم إلاَّ ثياب الصنعة وهم أيضاً قد بكروا لأعمالهم قالوا: وصادف فلاناً منهم ليس عليه إلا ثوب واحد خلق ليس له إزرار، فدخل (شباط) بهوائه بينه وبين ثوبه الأسفل حتى خرج من طوقه عند رقبته فانتفض الصانع المسكين، ولم يستطع إلاَّ أن يرمي بما في يده ويسرع ذاهباً إلى بيته تاركاً العمل في ذلك اليوم لشباط.

قالوا: وكان من أول من صادف منهم شباط من الصناع رجل اسمه (الطويعينه) – على لفظ تصغير الطاعنة- ولا أدري سبب تسميته بذلك- إذْ رآه معه سراج تنك يعمل فيه وليس عليه إلا ثويب له خلق، فلما أحس بشدة البرد لجأ إلى كيره الذي لا تزال فيه بقية من نار من أجل أن يتدفأ بذلك، ولكن برد شباط لاحقه فانصرف مسرعاً إلى بيته.

و(الطويعينة) هذا أول من صنع سراج التنك في بريدة لم صار يصنع فيها بكثرة تقليداً له، وذلك أن الناس كانوا في القديم يستعملون الودك في الاستصباح وهو الدهن الذي يخرج من الشحم عندما يحمى عليه بالنار، وتقدم ذكر ذلك.

وعندما عرفوا القاز استورد بعض أثريائهم سراجاً من الخارج لكنه معقد لأنه ذو لمبة وهي غطاء زجاجي يوضع على ذبالة السراج وهي ناره لئلا تطفئها الريح.

فاخترع طويعينه (سراج التنك) إذ كان يأخذ علبة صغيرة من التنك وهو الصفيح شبيهة بعلبة الكاكولا ونحوها في الوقت الحاضر فيجعل جزءها الأعلى منفصلاً على هيئة غطاءٍ يجعل في أعلاه قصبة ضيقة من التنك بحيث تدخل منها الفتيلة وهي حبل من القماش يكون طرفه الأسفل في العلبة بعد أن يطبق عليها بغطائها والآخر خارجه ثم يشعل أعلاها بالنار فيضيء لأنه يستمد القوة من (القاز).

قالوا: وكان إذا فرغ من سراج من هذه السرج التي يصنعها أخذ يقلبه بين كفيه وهو يقول: (يا صانع كل مصنوع) أخذاً مما كان قد سمعه أو قد نقل إليه من كون النبي داود عليه السلام إذا صنع درعاً وقيل إذا أراد صناعته قال هذه الجملة: (يا صانع كل مصنوع) فكان الطويعينه شبه سراج التنك هذا بصناعة الدرع الذي يصنعنه النبي داود.

ومن الطريف في هذا الأمر أن بعض الناس عندما رأى سراج التنك الذي صنعه (الطويعينه) قال: كفرنا به- أي (بالطويعينه) وآمنا بالله.

وهذه الجملة يقولونها عندما يرون عملاً معقداً يستبعدون أن يقوم به الآدمي من تلقاء نفسه، وحسب فهمه.

وأذكر أن بعضهم عندما رأى السيارة لأول مرة وعرف أنها من صناعة الكفار قال: (كفرنا بهم وآمنا بالله)!

ونعود إلى ذكر شباط وما صنعه بالصناع، فقد الجأهم كلهم إلى أن يقفلوا دكاكينهم ويعطلوا عملهم فانصرف حينذاك إلى أمه (المربعانية) وأخبرها بما صنع بهم، فشكرته وقالت: عشت يا ولدي!

خرافة أخرى:

إن هذه الخرافة بين المربعانية وابنها المزعوم شباط تذكرني بخرافة كانت العامة تتناولها في حكاياتهم وسمرهم عندما عقلت الأمور،

وملخصها الذي لا يزال عالقاً في ذهني وإن كان بعضها ذهب عني لطول الوقت أن الشيطان وهو إبليس جمع أولاده في أول النهار فأغراهم بأهل بريدة وطلب منهم أن يحرصوا على آذاهم وإغوائهم بكل ما يستطيعون، وأنه كان في آخر الليل عندما يجتمع أولاده إليه، لأن الناس لا يعملون شيئاً في الليل في ذلك الوقت لذلك لا يكون للشياطين مجال عندهم حتى الصبح، يكونون نائمين من أول الليل حتى أذان الفجر أو قرب الآذان.

فسأل كل ولد من أولاده عما فعل في ذلك اليوم، فقال أحدهم: أنا صادفت جَمَّال معه بعيره فجفلت بعيره فهرب منه وتركه وبقي الجَمَّال يطلبه ويتعب في ذلك وما زال في تعب.

فانتهره والده وقال: يا ولدي، أنت ما سويت (شيء) هذولى الجماميل أصحابنا فالجمال الذي نفرت عنه بعيره إذا أذن للصلاة صار يشد بعيره ويخرج ذاهباً إلى الحطب دون أن يصلي، ثم إنه عندما يكون في الخلاء لا يصلي الصلوات في أوقاتها، وإنما يجمع بعضها وقد يتساهل حتى في أدائها فأنت مخطئ في أذيته.

ثم التفت إلى ابن له آخر قائلاً: ما فعلت؟ فقال: ذهبت إلى صائغ من الصُوَّاغ وكان يعمل عملاً دقيقاً فحركت شيئاً بعيداً عنه بسرعة فضرب بالمطرقة إصبعه فتعطل عن العمل.

فقال له الشيطان: ما صنعت شيئاً هذولى الصوَّاغ أصحابنا لأن عملهم كله يدخله الغش.

ثم ابنه الثالث قال له: لقد قليت السراج في بيت فلان الذي عنده عيش – أي قمح- فانقلب السراج على حياض العيش فاحترق فتركته يتأفف ويدعو بالويل والثبور.

فقال له الشيطان: ما صنعت شيئاً هذا الرجل يدين الناس بالربا ويغش القمح بالشعير، و يأخذ عرق الناس بالباطل فهو من جماعتنا!

قال: وكان أصغرهم آخرهم كلاماً قال بعد أن تكلم من كانوا أكبر منه من عيال الشيطان قائلاً:

يا أبوي، أنا البارحة وسوست للمطوع فلان الذي يمضي أكثر الليل بالتهجد فأشغلت ذهنه بذلك الوساوس حتى فات موعد نومه لذلك لم يقم للتهجد.

فقال له الشيطان (إبليس): أحسنت يا ولدي، هذا هو الشغل اللي أنا أبيه.

قالوا: وكان أحد إخوانه من أبناء إبليس حاضراً، ولكنه لم يتكلم إلاّ عندما سمع استحسان والده لما عمله الصغير، فقال: وأنا رحت للشيخ الواعظ فلان ونفرت ناقة له كان ذاهباً عليها إلى القرية الفلانية ليعظ أهلها فشردت وسقط من فوق ظهرها فتعور وهو الآن بين الموت والحياة.

فأسرع إبليس يقول بأعلى صوته، شاطر يا ولدي، أنت ولدي حقاً لأننا استرحنا منه مدة، هذا هو الذي يؤذينا بأمر الناس بالاستعاذة منا، وبقراءته القرآن كل يوم!

وقصة إبليس مع أولاده هذه طويلة وفيها ذكر أهل الصناعات كلهم وما فيهم من عيوب هي مزايا عند إبليس وأولاده طويلة، ولكنني لا أحفظها الآن.

أسواق بريدة:

ذكرنا سوق الخراريز وسوق الصنانيع لأنهما السوقان اللذان عرفتهما في ذلك الوقت المبكر من عمري في حدود عام ١٣٥٠هـ في طريقي إلى دكان والدي.

وبقي سوق من أسواق أرباب الصناعات أو لنقل: المهن لم أذكره وهو (سوق القصاصيب) و(سوق القصاصيب) يقع إلى الجنوب من المسجد الجامع الكبير، وليس إلى الشمال منه كما هي عليه الحال في سوق الخرازيز والصنانيع، ولذلك لم أعرفه إلاّ بعد أن كبرت عن تلك السن.

وكان سوق القصاصيب هو (وسعة بريدة) القديمة بل الذي لا نعلم ميداناً واسعاً أقدم منه فيها.

وقد انتقلت الوسعة التي مكانها هذا الذي جنوب الجامع إلى الوسعة الشمالية التي تقع مباشرة إلى الشمال من المسجد الجامع.

وفي الوقت الحاضر صار سوق القصاصيب القديم سوقاً لبيع الذهب والمجوهرات وليس لأرباب المهن والصناعات الأخرى أسواق خاصة بهم مثل النجاجير فهؤلاء كل واحد منهم ينجر في بيته، ولبعضهم دكاكين منفردة بجانب الأسواق، مثل الصاغة الذي لهم دكاكين قليلة منفردة.

وإنما هناك سوق سمي على اسم ما يباع فيه لا على أهله لأنهم من طوائف متعددة من الناس وهو سوق العلف الذي يباع فيه البرسيم وغيره من الأعلاف الخضر الطازجة.

أما الأعلاف الكبيرة كالعشب الرطب واليابس فإن له أماكن أخرى.

دكاكين بريدة:

الفضول طبيعة في مؤلف هذا الكتاب، فهو فضولي بطبعه فيما يختص بمعرفة الأشياء التي لا تتعلق بعمله.

ومن ذلك أنني أحصيت في عام ١٣٥٧هـ وكان عمري اثنتي عشرة سنة الدكاكين التجارية أي التي ليست لأهل الصنائع في بريدة أحصيتها واحداً

واحداً وبطريقة كتابية حتى إن كثيراً منها ذكرت اسم صاحبه غير أن التفصيل ضاع مني لأنه يعتبر من الفضول آنذاك.

وبلغ عدد الحوانيت إجمالاً أي التي للتجار وإن اختلف ما يباع فيها من البضائع ٣٢٧ (ثلاثمائة وسبعة وعشرون دكاناً)

وهذه هي غير دكاكين أرباب الصناعات والمهن مثل الخرازيز والقصاصيب والصنانيع.

ومع أن الكلام عن التفرقة بين السكان على أساس عنصري أمر مكروه، لاسيما في مدينتنا بريدة التي هي أبعد بلدان نجد على الإطلاق عن العنصرية وطرحها في التعامل، إذْ إنني من أهل بريدة الأصلاء، لأننا نحصي من أسرتنا ١٥ جداً في منطقة بريدة قبل أن تتخذ مدينة بريدة شكلها الحاضر.

ولذلك فإنني أقول سراً وعلناً إنه لم تكن توجد في بريدة تفرقة عنصرية، في ذلك الوقت، وإن أهلها من هذه الناحية أرقى من غيرهم من أهل نجد بكثير، حتى إنني لا أذكر أن أحداً قد عير أحداً بذلك أو توقف عن التعامل معه أو غيره لذلك السبب، أهل بريدة من الود والمحبة والمشاركة في الأمور والعواطف أكثر مما يكون بالإصهار والتزاوج.

الطريق إلى الدكان:

كان والدي يحملني كما قدمت وأنا صغير إلى دكانه ولم أكن في سن تسمح لي بمعرفة الطريق إلى الدكان، ولما بلغت الخامسة من العمر في عام ١٣٥٠هـ صرت أذهب معه مشياً إلى الدكان وصرت أعرف الطريق إليه، فكنا إذا خرجنا من بيتنا ووالدي كثيراً ما يخرج من باب القهوة الذي هو باب دخول الضيوف لأن باب الحوش أو المراح تخرج معه النساء والأطفال، ومنهن النساء الأجنبيات، فنمشي بعد الخروج من البيت مع زقاق يذهب جنوباً، وهو زقاق ضيق عليه من الجهة الغربية كلها بيت المحسن الشهير في وقته عبدالله بن خليفة، وخليفة هو اسم والده خليفة السعيدان، وقد هجروا لفظ السعيدان في لقبهم فصاروا لا يعرفون إلا بالخليفة فقط، وعبدالله بن خليفة من الأشخاص القلائل الذين يعرفون الإنكليزية في تلك الحقبة، وكان أول نجدي يسافر إلى أمريكا، وقصة ذلك مشهورة طريفة ذكرتها في (معجم أسر القصيم).

وقد لبث في أمريكا خمس سنين حصل خلالها على ثروة لا بأس بها وسافر من أمريكا إلى الهند، حيث اشترى بما معه من النقود بضائع، وفتح دكاناً في بريدة، وكان رجوعه من أمريكا إلى بريدة قبل نشوب الحرب العالمية الأولى.

أما من جهة الشرق من هذا الزقاق فإن فيه بيتين تداولتهما أيدي الملاك وهما صغيران لا يستحقان الذكر.

وينتهي هذا الزقاق في شارع لا بأس بسعته في ذلك الوقت وهو الآن ضيق يقع عليه من جهة الجنوب (مسجد ابن شريدة) فنذهب جهة اليمين من هذا الشارع أو السوق فيكون على يسارنا المسجد متجهين إلى الغرب وعلى أيماننا بيت لأسرة صغيرة اسمها (القِرنه) بكسر القاف وإسكان الراء كان لهم ابن اسمه (عباد القرنه) صار بعد ذلك يقرأ معنا في الكتّاب،

وكنا نسمي القرنة هؤلاء (القرائى) بفتح النون وصيغة الجمع، وصيغة الجمع على (فعالَى) بفتح الأولى واللام، ولا أدري ما فعل الله بهذه الأسرة ولا ما إذا كان موجوداً منهم أحد الآن.

ثم نعطف على ايسارنا جهة الجنوب مع الشارع المستقيم الذي صار بعد توسعته يسمى (شارع الصناعة) وتوسعته هي من جهة الغرب، أما جهة الشرق فإنها لم تمس حتى الآن.

بيت الحصان:

وبذلك تكون وجوهنا جهة الجنوب، على اليسار منا محراب مسجد ابن شريدة وعلى اليمين بيت (الحصان).

وهؤلاء هم أولاد صالح الحصان الذي كان ثرياً له قليب مشهورة إلى شمال الجفر تسمى (قليب الحصان) وله في جنوب الصبيحية، منفصلاً عنها قليب ليس فيها نخيل وإنما فيها أثل وهي تزرع في الشتاء.

وعهدي بها تكثر فيها الثعالب، ولا يخلو من يذهب إليها ويتجول في الأثل حولها من أن يرى ثعلباً من الثعالب.

وأذكر أنه في مرة من المرات وجدت الكلاب المستسعرة والواحد منها سِعِر أو كلب مستسعر، أي صار كالسعر وهي التي تصاب بداء الكلب وتعض الناس تنقل ذلك الداء إليهم فرأى الناس ثعالب تفعل مثل ذلك فصاروا يتواصون بقتلها، وقتلوا من الثعالب عند قليب الحصان هذا عدداً كبيراً حتى ارتفع ذلك الوباء، وذلك كله من باب الاجتهاد من الناس وإلاَّ فإنه لا توجد في ذلك الزمن مختبرات أو تحاليل طبية.

ولم أدرك صالح الحصان، وإنما حدثني بذلك والدي، وإنما أدركت في بيته ابنه عبدالرحمن، فكان من كبار جماعة مسجدنا (مسجد ابن شريدة) حتى كان يقرأ على الجماعة في ليالي شهر رمضان في كتاب (التبصرة) بديلاً من إمام المسجد (عقلا الحسين) الذي يتفرغ لقراءة القرآن في التراويح والقيام، وعبدالرحمن الحصان معروف بكثرة تلاوة القرآن، وبرقته عند الوعظ.

ولا نكاد نتجاوز بيت الحصان (على اليمين)، ومِحراب مسجد ابن شريدة جهة اليسار حتى نصل إلى (منجر الصايغ) وهو إبراهيم بن صالح الصايغ فهو المكان الذي ينجر فيه لأن هذه هي صناعته، وكان يستأجر صبياناً عنده واحداً بعد الآخر ليساعدوه في العمل، والمراد بالصبيان هنا: العمال.

وإبراهيم الصايغ هذا أبيض اللون بياضاً مشرباً بحمرة حتى إن عينيه فيهما زرقة البيض جداً، ولكن بصفة خفيفة، وهو من التالين لكتاب الله تعالى، ومن الحاضرين لحلق الذكر ومحسوب على الأخوان من طلبة العلم أي بأنه معدود واحداً منهم، وكان يؤذن في مسجد ابن شريدة، وقد لبث في ذلك دهراً زاد على خمسين سنة.

وكان إبراهيم الصايغ مزواجاً مثل والده أي أنه يحب أن يتزوج حتى بعد أن كبر سنه، وقد خطب وهو كذلك أي بعد أن صار كبيراً بنتاً صغيرة ووعد أهلها بأنه سوف يدفع لها مهراً أكثر من المعتاد، لأنه على شيء من

الثراء إذْ اشتغل بالبيع والشراء في آخر حياته فكان يعمر بعض البيوت الصغيرة بالطين، ويبيعها يكسب من ذلك، وكان يتاجر في صناعة الخشب، فقالت البنت التي خطبها: لابد من أن أنظر إليه.

وذهبت مع صاحبة لها إليه فوجدته قد استند إلى الشارع وهذه كانت عادته لأنه كان قد ترك العمل في المنجرة بيده، وقد انسلح في قعدته أي صار كأنما هو قاعد على ظهره وقد مد رجليه في جلسته ارتخاء، قال بعد ذلك: إنه لم يكن يعرف أنها سوف تمر به وتنظر إليه، وإلاّ لكان أصلح حاله ولباسه.

فلما رأته الفتاتان على هذه الحالة قالت إحداهما بصوت مرتفع تريده أن يسمعها: (يا اختي وش يبي ها لشايب ما يموت)؟.

أي ماذا ينتظر هذا الشيخ الهرم؟ ولم لا يموت؟

وقصة إبراهيم الصايغ هذه ذكرتني بقصة شيخ ورع وهو شيخ عالم من أهل الأفلاج الساكنين في الرياض، وكان ثرياً فخطب فتاة شابة من أهل القصيم المقيمين في الرياض وهي جميلة، وقد أجابه والدها لأنه في سن الرابعة والأربعين تقريباً أو فوق ذلك بسنتين أو ثلاث، ولكنه لورعه قال: لابد من أن أراها وتراني، أما أن أراها فهذا من المباح في الشرع كما يعرفه الجميع وأما أن تراني فهذا أفضل من الغرر الذي يصيبها إذا لم تكن رأتني، وربما تندم على زواجي منها بعد فوات الأوان.

وقد دفع المهر إلى والدها، وقد جمع بينهما والدها بحضور الرجل، فقال الرجل لورعه: اسمعي يا بنت، أنا لازم أبين لك كل شيء عني قبل الزواج لئلا يكون فيه غرر، لأنني اعتقد أنني إذا لم أوضح لك ذلك أكون قد غشيتك والغش حرام كما يعرف الجميع.

ثم أمسك بلحيته السوداء بيده وقال: هذه اللحية التي ترينها سوداء، ليس لونها الحقيقي كذلك، بل أكثرها أبيض، لأنه قد شاب، ولكنني أصبغها بأسود ورأسي وكشف شماغه وطاقيته على رأسه، انظري إليه إنه أصلع لا شعر فيه، ولا تقولي بعد ذلك: إنك لم تخبرني، وعيني اليمنى هذه إنها زجاجية لأن عيني قد ذهبت ولم أرد أن يكون مكانها فارغاً.

هذا هو ما فيَّ من عيوب جسمانية أطلعتك عليها لتكوني على علم بها!!!

قالوا: ففزعت وذهبت تبكي إلى أمها، أما الرجل فإنه قال لوالدها: إنني أعرف أن الأمر بالنسبة إليها يحتاج إلى شيء من الوقت، وسوف أعود إليك بعد ثلاثة أيام لأسألك عن قرارها، ثم خرج.

وعندما عاد الرجل إلى أهله وجد ابنته في حالة سيئة لم يرها عليها من قبل وخشي عليها من الانهيار النفسي، ولم تمهله حتى يسألها، بل قالت له: يا والدي، إذا أجبرتني على الزواج بهذا الرجل، فإنني أخشى أن أفر منه إلى البرية فيحصل لي ما لا تحمد عقباه.

فقال لها: اطمئني فإنني لا أقسرك قسراً على الزواج منه، ولكنني أرجو أن تفكري بعض الوقت، فقالت له: إنني لا احتاج إلى تفكير، فقد فكرت.

وهنا اضطر إلى إعادة المهر إلى الرجل والاعتذار إليه.

صاحبة الدكان:

في منزل مجاور لمنجر الصايغ كان لامرأة لا يعرفها الناس إلاَّ بلقب لها لا يذكر اسمها ولا اسم أسرتها.

ودكانها جزء من بيتها فتحت له باباً إلى الشارع وحولته إلى دكان امرأة، ودكان المرأة في العرف لا يدخله الرجال، وإنما يقفون خارجه في الشارع وهم يتحدثون إليها فيما يريدون شراءه منها.

وكان والدي في ذلك الوقت كثيراً ما سمعتها تناديه إذا مر عنها ذاهباً إلى دكانه أو راجعاً منه قائلة: يا فلان، عندي بيضات: تصغير بيض الدجاج والعادة إن من تكون عنده دجاج من المحتاجين يبيع ما يجتمع عنده من بيض قليل، لينتفع بثمنها مع أن ثمنها ضئيل، إذ الواحدة ببيشلية أو بيشليتين، والبشلية هي القطعة وهي وحدة النقد الصغيرة في بلادهم وهي من النحاس يبلغ صرف الريال الفرنسي منها في ذلك الوقت نحو ١٨ وقد يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً حسب العرض الموجود بأيدي الناس من هذه القطع النحاسية التي هي نقد تركي وقلته عندهم.

يشتري والدي منها البيض وعدده محدود ويقليه بالسمن بأن يضع محماسة القهوة على النار بعد أن يضع قليلاً من السمن ثم يكسر البيضات ويصبها عليه في المحماسة ويقلبها بيد المحماسة، حيث تصبح جاهزة للأكل، وليس ذلك بصفة منتظمة ولا كثيرة.

ولكن الذين يرغبون في شراء البيض قليل جداً بسب ثمنه أولاً أو لكونهم لم يعتادوا عليه.

أما دكاكين النساء فإنها عديدة في بريدة أعرف منها في ذلك التاريخ المبكر خمساً في شمال بريدة، ولا أدري عن بقية جهاتها الأخرى.

ولا يبيح العرف ولا العادة للمرأة أن يكون لها دكان بين دكاكين الرجال، وليست لهن دكاكين منتظمة في سوق كما يكون لأهل المهن والصنائع، وإنما تفتح المرأة كما قلنا باباً في بيتها وتكون عندها أشياء قليلة من البضائع المتعددة وغالبها صغيرة، وتكون أرخص مما عند الرجال،

لأنها أقل والكلفة عليها من المرأة أقل، وأكثر ذلك ظهوراً أنها لا تدفع أجرة لدكانها لأنه جزء من بيتها.

ويقف الرجال أمام دكان المرأة خارجه من جهة الشارع فيتحدثون إلى المرأة فيما يتعلق بالسلع التي عندها، ولا يرون في ذلك بأساً.

وخاصة أن صاحبة الدكان تكون حسب العرف الشائع نَصَفاً، أي في منتصف العمر أو مسنة.

ولا نعرف امرأة شابة صار لها دكان وصارت تحادث الرجال للبيع والشراء في دكانها.

قلت: إنه لابد في العادة والعرف من اسم لصاحبة الدكان يكون لقباً لا يذكر فيه الاسم الصريح لأسرتها.

فأسماء ربات الدكاكين التي أعرفها في ذلك الوقت هي (النوصا) و(التشا) و(السودا) و(سِعْره) و(ام الدعاجين).

إن (النوصا) و(التشا) لا أعرف معناهما وأما سِعْرة بكسر السين وإسكان العين فإنه ربما كان هذا لقباً خاصاً لها كغيرها أو مأخوذ من شيء آخر.

وأما أم (الدغاجين) فإنهم أسرة صغيرة كانت معروفة آنذاك ولا أدري ما فعق الله بهم الآن.

و(سِعْره) دكانها أكثر بعداً إلى الجنوب من الدكاكين الأربعة الأخرى التي هي في شمال بريدة وشرقها الشمالي فهو واقع إلى الشمال من المسجد الجامع القديم، ودخل في توسعة شارع الصناعة، ولذلك هو مزدهر أكثر لقربه من السوق ويكون عند (سِعْره) من المأكول الخبز الخمير الذي يأكله المسافرون القادمون إلى بريدة من القرى، ويكون عندها رؤوس الغنم مطبوخة بعد حسحستها والحسحسة هي تعريض الرأس

والكوارع إلى النار لتأكل ما عليها من الشعر ثم تطبخ بعد ذلك وتؤكل، ولكن (سِعْره) تبيع هذه الرؤوس وإن كان الإقبال عليها مثل الخبز الخمير قليلاً.

ومن الطرائف في هذا الصدد أن إحدى النساء من أهل القرى كان قد مضى عليه زمن وهي عند أهلها لم تأكل فيه اللحم فاشترت من دكان (سِعْره) وهي الوحيدة فيه رأساً مطبوخاً جاهزاً للأكل بثلاثة أرباع والربع: نقد نحاسي يسميه بعض الناس (ربع جَرْش) بلفظ القاف كما تلفظ جيماً معطشة و(الجرش) في اصطلاحهم هو ثلث ريال.

قالوا: فأخذت المرأة الرأس وجلست في قبة (حبص) القريبة من دكان (سِعْره) جهة الشمال، والقبة هي الساباط وهو الغرفة التي تكون فوق الزقاق تصل بين دارين متقابلتين، أو تكون خاصة بإحدى الدور على جانبي الزقاق، وكان الناس الذين دورهم ضيقة يتوسعون ببنائها لأنها لا تحتاج إلى أرض لكونها فوق الزقاق والسوق.

وجلست المرأة تُقلب هذا الرأس الجاهز للأكل بإعجاب، وتقول تخاطبه وتحادث نفسها: (عسى الثلاثة ما لهن والي).

وتريد ثلاثة الأرباع التي هي ثمنه، ومالهن والي بمعنى أذهبهن الله إذْ ذهبن مني ثمناً لهذا الرأس، ثم تقول: هن بعيونه؟ هن بأذانه؟ هن بلسانه؟ هن بمخه؟ هن بلخاسه؟ واللخاس جمع لخسه وهي شحمة تكون خلف العين.

تريد أن تلك الثلاثة الأرباع لا شيء بالنسبة إلى هذا الرأس الجاهز للأكل!

وبينما كانت تتغزل به كان رجل أكثر حاجة إلى اللحم منها أو مثلها ولكنه لا يخاف الله يأتي إليها من وراء ظهرها وينتزع الرأس منها ويولي هارباً به.

زراعة التتن في القصيم:

و(قبة حَبَص) هذه كان فيها رجل يقال له (الصنَّانه) يبيع أوراق التين من إنتاج القصيم، إذْ كان يزرع فيها وهو مشهور بذلك لا يستخفي فيه.

حدثني والدي رحمه الله قال: بينما كنت صغيراً في دكان والدي في حدود عام ١٣٠٢هـ كان الوقت صيفاً، وكان السوق الذي فيه دكاننا فيه (عشاش) وهو أن أهل الدكاكين إلى وقت قريباً كان يجعلون خشباً معترضاً من خشب الأثل القوي على جداري سوق البيع والشراء، فإذا جاء الحر جعلوا فوقها عسبان النخل مع سعفها ليقي أهل السوق أذى الشمس حتى إذا انقضى زمن الحر أنزلوه أي أنزلوا السعف وتقاسموه بينهم للوقود وقد جرت العادة على أن يتقاسمه أهل الدكاكين الذين اشتروه في الأصل.

كان من عادة أهل الدكاكين أنه إذا اشتد الحر أغلقوا دكاكينهم في نحو الحادية عشرة والنصف وذهبوا لبيوتهم لينامو نومة القايلة، إلا من كان عنده ابن له شاب لا ينام فإنه يدعه في دكانه.

وهذا ما حدث بالنسبة لوالدي الذي كان عمره نحو عشر سنين عند حدوث هذه القصة، قال: بينما كنت وحدي في دكان والدي وقد أغلق أكثر أهل الدكاكين دكاكينهم في وقت القايلة، ولا يوجد إلا بعض الصبيان يلعبون في ظل المعشاش.

قال: وقد جلس في الظل بدوي كبير السن يظهر من هيئته أنه من أهل الشمال وهو ذو شعر يبدو غير معتنى به.

قال: فسمعته ينادي الأولاد قائلاً: يا عيال الأجاويد ما فيكم أحد جزاه الله خير يحط لي بها السبيل وأبرز بيده أنبوبة لا أدري ما هي (تتن) والله أني لي يومين ما ذقته.

قال: فقال له الصبيان: أجل، هاته وأخذوا الأنبوبة وذهبوا إلى (الصنانه) بائع التتن وطلبوا منه أن يملأ لهم السبيل بالتتن ثم جاءوا إلى ولم يظهروا لي أنه معهم وقالوا: نبي من فضلك شوي ملح نبي نوريه واحد ينشد عن ملح بارود، قال: فأعطيتهم قليلاً جداً فذهبوا عني وأدخلوا البارود في تلك الأنبوبة وحشوا ظاهرها وهو فمها بالتتن، وأعطوها لذلك الشيخ الأعرابي، ثم انطلقوا يراقبون الأمر من طرف الشارع.

قال: فأوقد الأعرابي طرف الأنبوبة، ومص دخانها مرة، ثم لما مصها ثانية انفجر به البارود لأن النار وصلت له.

قال والدي: وكنت قريباً منه لأنني لم أعرف بقصدهم، قال فكان أن انقلب لون وجهه إلى أسود من الدخان الذي جلله، ووصلت النار إلى مقدمة شعر رأسه، وبينما كان على هذه الحالة أغلقت الدكان وعدوت هارباً لئلا يصيبني منه ضرر، ولا أدري بعد ذلك ما فعل الله به.

أقول: زراعة التتن وهو ورق التبغ كانت شائعة في القصيم حدثني أبي عن جدي عبدالرحمن العبودي قال: كنا غازين مع حسن المهنا قبل سنة المليدا فنزلنا على إحدى قرى الجواء وليست بلدة العيون عاصمة الناحية، وكان أميرها عنده بقرة واحدة يسني عليها، وقد ذبحها ضيافة للأمير ابن مهنا ومن معه.

قال وهو مرح فقال له حسن المهنا يمازحه: يا فلان وش عندك هنا أشوف فلاحتك ما فيها إلا أربعة حياض تتن وأربعة حياض مليسا؟

وهذولي ما من وراهن عيشة، تعال عندي ندور لك فلاحة ببريدة تفلحها فيها نخل وقت وخير تعيش منه.

فقال له: الأحسن يا الأمير إنك تخلين في محلي هذا لأني ان رحت عنه ما جلستوا انتم يا أهل بريدة ببريدة.

فتعجب الأمير وقال: ما هو؟

فقال الرجل وهو أمير قريته: أنا قاعد هنا أرد عنكم الفقر اللي يجي من جهة الشمال ساكره عنكم (سكر) وإلاّ كان وصلكم وافتقرتم.

قال جدي: وقد تأملت فلاحته فلم أر فيها إلاَ حياضاً من التتن، وحياضاً من الدخن، وكلها تدل على الفقر والحاجة.

وبهذا نعرف أن التتن الذي يراد به هنا ورق التبغ كان يباع في بريدة، ولم يكن الناس يعرفون (التتن) إلاّ ورقاً ينتج عندهم في أطراف القصيم، أو يأتي إليهم مستورداً من العراق، ولم يكونوا يعرفون لفافات التبغ، وإنما كان أكثرهم يأخذون عظماً من قائمة الذبيحة مثل ذراع الخروف أو رجل الشاة فيجعلونه بمثابة الأنبوب يملئونه بورق التبغ ثم يوقدون طرفه ويدخنونه.

عود إلى الحديث عن الطريق:

والحديث عن طريقي إلى دكان والدي طويل وفي بعضه طرافة، ولو كان بنو قومنا ممن يؤرخون لأسرهم وشخصياتهم لما كانت هناك حاجة لتسجيل هذا، بل لكان تسجيله غير مهم، ولكن جميع ما ذكرناه كان سيضيع، بل بعضه ضاع بالفعل وانتشلناه من أنياب الضياع، وإن كان هذا على نطاق ضيق، وبطريقة عامة.

فبعد أن نتجاوز صاحبة الدكان ودكانها الواقع على الشارع الرئيسي القديم الذي أصبح يسمى بعد توسعته من جهة الغرب بشارع الصناعة نصل مباشرة إلى بيت (الشقاوي) بكسر الشين وتشديد القاف- نسبة إلى الشقة القرية الواقعة إلى الشمال من بريدة وهو كما نعرفه شيخ كبير السن مكفوف البصر، وقد كف بصره بعد أن كبر، وربما كان سبب ذلك وجود الماء في العين كما كانوا يعبرون عما يسمى الآن عند الأطباء العصريين بالكناركت وكان يعرف عند الأطباء القدماء بالماء الأبيض.

وهنا مرض آخر يسمى عندهم بالماء الأسود، وله عند العامة أسماء أخرى

مثل كونه إذا كان حاداً شديداً أسموه (السويرق) على لفظ تصغير السارق لأنه يسرق النظر من العين مع بقاء منظرها على حاله.

ولسليمان الشقاوي هذا ابن من طلبة العلم الزهاد العباد، بل الأوابين الخاشعين، نقل لنا ونحن صغار عنه أنه عندما كان يصلي مع الناس في مسجدنا (مسجد ابن شريدة) صلاة القيام والإمام ابن كريديس يتلو القرآن في صلاة القيام غلب عليه الخشوع فلم يستطع مقالبة الانتحاب، فظهر منه صوت من ذلك غير معتاد، واعتذر بعد ذلك لمن سألوه بعد الصلاة عما حصل له بأنه كان قهراً عليه، فتحدث الناس بإسهاب بأنه رأى باباً في السماء مفتوحاً لأعمال القائمين المتهجدين ولكنه لم يحب أن يخبر الناس بذلك، لذا غلبه الخشوع.

وقد توفي هذا في طريق الحاج عند عودته بعد انقضاء الحج في الطريق إلى بريدة ودفن عند جبل في الطريق يقال له: (حبر) بحاء مهملة وباء ساكنة، وقد رأيت تاريخ وفاته بخط زميله في الطلب فهد العبيد، مشكّلاً بكسر الحاء وإسكان الباء.

وللشقاوي حفيد برز في حصوله على ثقافة عصرية نادرة، إذ كان رئيس ديوان إمارة الجوف، وكان تعلم في الشام أو الأردن.

وعندما عاد إلى بريدة في عام ١٣٦٧هـ بعد غيبة طويلة احتفل به من يسمون بالمثقفين من أهلها فشجعهم على إنشاء شركة زراعية طبقا لما كان علمه ولم يعلموه لإنجاح الشركات فاتفقوا على إنشائها وأن يبدؤا بالنقيب وكانت أرضه آنذاك حرة أي حكومية غير مملوكة.

وقد صار إنشاؤها موضع تندر ممن لا يقدرون الأمور فأسموها (شركة تنقيب النقيب) وقد فشلت الشركة المذكورة.

وابن حفيده هو الدكتور عبدالرحمن بن عبدالله الشقاوي المدير العام لمعهد الإدارة العامة في الوقت الحاضر.

بيت الشاعر:

يقع بيت (الشقاوي) على ناصية شارعين أحدهما من جهة الشرق شارع الصناعة، والثاني يمتد منه ذاهباً جهة الغرب فهو يحد بيت الشقاوي من الجنوب.

ويقع جهة الغرب من بيت الشقاوي (بيت الصغير) وهو غير الشاعر محمد بن سليمان الصغير، الذي هو من أعظم شعراء الحماسة وشعر العرضة الذين أنجبتهم بريدة وقال لي بعض الشعراء: إنه ربما كان أشعر شعراء الحماسة والحرب في وقته بالنظر إلى نوعية شعره وإلى كثرته، وما ضره، وسبب عدم انتشار شعره أنه كان من المعارضة، وانضم إلى هذا الفريق الذي خالف رأي الملك عبدالعزيز، ولكنه الله قيض للملك عبدالعزيز إنهاء هذه المشكلة والقضاء على أسبابها.

وبعد استتباب الأمر للملك عبدالعزيز قام بتعيين محمد بن عبدالله أبا الخيل أميراً على بريدة والقصيم خلفاً لابن عمه صالح الحسن، وذلك لأنه من أسرة المهنا.

وقد حدث من الشاعر الحماسي محمد الصغير والشاعر الكبير محمد العوني ما يتفق مع اتجاه المعارضة، وذلك لقصر نظرهما وعدم بصرهما بالأمور ومآلها، كما شاركهم في هذا عدد من كبار أهل بريدة في ذلك الوقت.

غير أن أهل الحل والعقد في بريدة، ورأسهم وزعيمهم محمد بن عبدالرحمن الشريدة، عرفوا أن فائدة بريدة هي في الانضمام مع الملك عبدالعزيز آل سعود، فاتفقوا مع الملك عبدالعزيز على أن يعدوا دخوله إلى بريدة في ساعة معينة، وقام الملك عبدالعزيز لذلك بتأمين سلامة جميع من عارضوه وحفظ نفوسهم وأموالهم وأوفى بذلك.

وقد خطط محمد الشريدة لذلك على أن يدخل الملك عبدالعزيز إلى بريدة من باب السور الشمالي، وكان بعض الأشخاص لم يعرفوا بهذا الاتفاق، إذ كان ابن شريدة أبلغ أناساً من أهل شمال بريدة ممن يثق بهم بذلك، وأمرهم بفتح باب السور للملك عبدالعزيز.

وقد دخل الملك عبدالعزيز إلى بريدة وفق هذه الطريقة والخطة ، ولم يحدث إلا مناوشة صغيرة بسبب جماعة قليلة من الأفراد، ولكن الملك عبدالعزيز عفا عنهم جميعاً، وكان من الذين جرحوا الشاعر محمد ابن صغير، الذي توفي عام ١٣٢٦هـ متأثراً بجراحه تلك .

المناجر:

والمناجر- جمع منجرة- وهي مكان النجارة الفنية الواسعة بالنسبة لما كانت عليه الصناعات في نجد، فنجد حالما نسير في طريقنا ثلاثاً منها إحداها للشدوخي وهو الملقب الأميِّر على لفظ تصغير الأمير، وذلك أنه رجل وجيه، طالب علم، ثم هاجر إلى الرياض في وقت مبكر نسبياً ومات فيها، بعد أن خلف عدداً كبيراً من الأولاد.

بيت أمير الشعراء:

والمراد بهم شعراء العامية وأميرهم غير المنازع هو محمد بن عبدالله العوني، فما أن تصل إلى منجرة الأميِّر إلى يسار شارع الصناعة وأنت متجه جنوباً حتى تصل زقاقاً أو شارعاً على جهة يمينك ينطلق من شارع الصناعة

متجهاً إلى الغرب وفي رأسه منجرة أخرى، فإذا سرت فيه نحو ٩ أمتار وصلت إلى بيت الشاعر العامي الكبير: محمد بن عبدالله العوني.

كان والدي رحمه الله يحدثني عندما كبرت قليلاً عن العوني، ومن ذلك أن الملك عبدالعزيز آل سعود قال للعوني عندما تغلب هو ومن معه من أهل القصيم على عبدالعزيز بن متعب الرشيد بعد سنة السطوة في عام ١٣٢٢هـ قال: اطلب يا العوني، يريد أطلب ما تريد أن يكون لك من البروة والبروة هي المقرر السنوي من التمر أو القمح وهما المحصول الرئيسي الذي يحصل عليه الملك من الفلاحين ويدخله بيت المال على سبيل الزكاة أو نحوها.

فقال العوني: أنا- يا طويل العمر- ما أبي إلاّ (حرف واحد) (ألف) من العيش يريد ألف صاعٍ من أصواع العيش.

قال لي والدي وقد رأيت أكثر من مرة الحمول وهي التي تحملها الإبل تنيخ عند بيت العوني هذا وهي عشرة جمال كل جَمل منها عليه مائة صاع من القمح في عدلين متساويين، والألف الصاع هو حمل البعير المعتاد من القمح ونحوه لأن ذلك يساوي مائتي وزنة أي (٣٠٠ كيلوقرام).

أقول: ذلك لأن العوني كان اللسان الناطق بالشعر المؤثر للملك عبدالعزيز آل سعود عند استرداده نجد من آل رشيد فكان ينظم القصائد الرنانة المؤثرة، ويكون لها وقع الجيوش في بعض الأحيان.

ويكفي المرء شاهداً على ذلك قصيدته المربوعة الطنانة التي سارت في البلاد مسير القمر في السماء، وعدد فيها مآثر الملك عبدالعزيز آل سعود وسيرته في غزواته حتى سماها بعض المتعلمين المتأخرين بالملحمة، أما أهل القصيم فيسمونها (المستحيطة) بمعنى (المحيطة) لأنها أحاطت بذكر جميع

غزوات الملك عبدالعزيز ومقارعته مع أهل القصيم حكم عبدالعزيز بن رشيد.

وهي موجودة في ديوانه، ولكنها تنقص أبياتاً يعرفها أهل الشعر من أهل القصيم، وأولها:

قوموا كفاكم شر ميلات الأقدار شيلوا على هجن لهن الطلب دار
شيب الذرى، فجٌ المناحر يعابيب هواربٍ تقطع مدى بيد الاقفار

وتأثير شعر العوني معروف مشهور حدثني من أثق به أن الملك عبدالعزيز آل سعود كان في غزوة من غزواته وكان معه عدد من شيوخ قبائل الأعراب وغيرهم من أعيان أهل نجد، وذلك قبل فتح الحجاز فأهديت إلى الملك في إحدى مجالسه في تلك الغزوة مهرة صفراء ثمينة وهي الفرس الشابة القوية فقبلها وأعطاها العوني على مرأى ومسمع من الذين كانوا معه.

ثم أهديت له في مجلس آخر خنجر منقوشة بالذهب فأعطاها العوني، والناس يرون ويسمعون ذلك، وكان من بين الحاضرين الشيخ الشجاع (محسن الفرم) كبير قبائل بني علي من حرب، فلما كان في مجلسه مع جماعة من قومه وغيرهم قال لهم: يا ناس انتم ما شفتوا سواة الإمام عبدالعزيز بن سعود تجيه الفرس الصفراء ويعطيها حضري من أهل القصيم، وتجيه الخنجر الثمينة ويعطيها الحضري، وحنا يا شيوخ القبابل يتركنا ما يعطينا إياها.

وبلغ ذلك العوني فذهب إلى الفرم في مجلسه وقال له بعد حديث: يا أبو جَلاّل، إلى صرت مع الإمام عبدالعزيز بن سعود في الحرب كم تذبح من

رجّال في الموقعة؟ فقال الفرم: حينٍ أذبح رَجَّال واحد وحينٍ اثنين، وذبحي الثلاثة قليل، وحينٍ أخاف على نفسي واتغانم السلامة، ولا أذبح أحد.

فقال العوني: أنا أقول أبيات ما هي كثيرة تَهَيِّج أعداء عبدالعزيز بعضهم على بعض حتى يتقاتلون ويقتل منهم بسببها عشرات، ويمكن مئات فأينا أنفع لابن سعود أنا أو أنت؟

ثم عقب العوني على ذلك: هذا السبب الذي خلى عبدالعزيز بن سعود يعطيني المهرة الصفراء والخنجر المذهبة!

ومن الطرائف التي تحكى عن العوني في شبابه أن والده عبدالله العوني كان (ستاد طين) أي معلم بناءٍ ماهراً وهو معروف بذلك حتى إن منيته عندما كبر كانت بسبب وقوعه على رأسه من جدار عالٍ كان يبنيه.

وكان كل ما يريده أن ينشأ ابنه بارعاً في صنعته أي صنعة البناء، غير أن الابن كان له اهتمام آخر فكان يقول الشعر ويجالس الشعراء، فقال له والده: يا ولدي- يا محمد- اترك الشعر عليك بصنعة أبوك تراي أنا ابني البيت بأربعين يوم.

فقال ابنه محمد العوني: يا بيبي: إن كان أنت تبني البيت بأربعين يوم أنا أبني باليوم أربعين بيتاً من بيوت الشعر.

وإذا تركنا العوني وبيته ورجعنا للسير مع شارع الصناعة القديم متجهين جنوباً فإننا نصل إلى المنجرة الثالثة.

ومن الطرائف المتعلقة بها أن بدوياً من أهل الشمال وهم معروفون من أهل نجد ببعدهم عن الاحتكاك بأهل الحضر في ذلك الوقت، ولذلك لا يفطنون لكثير مما يفطن له الحضر، كان ذلك البدوي معه شاة سمينة، فمر بها على صاحب المنجرة هذا فسأله قائلاً: أتبيع هذه الشاة؟

فقال البدوي: لا يا خوي ما أنا بايعها، أبي بها ودك، والودك هو الدهن الذي يستخلص من الشحم إذا أذيب، والأعراب مثل أهل الحضر يستعملونه في الإدام للطعام، ويدهنون به الجلود التي يجعلونها قرباً- جمع قربة- أو دلاءً – جمع دلو- فأسرع صاحب المنجرة واسمه عندي يحضر مخرفة وهي إناء كبير من النحاس وقال له: أنا أبي اشريها بملي هالمخرفة ودك طيب؟ ووافق الأعرابي فقال له: أصبر حتى نحمي الودك ونفرغه بالمخرفة، ولكن هذا يحتاج إلى وقت، ادخل تقهو وتغد، حتى ننتهي، وقد وافق الأعرابي، وأنى له أن يرفض مثل هذا العرض، بل إنه كاد ينسى الأمر، وبخاصة لما شم رائحة التمن وهو الأرز الردئ الذي يأتيهم من العراق.

وكان الحضري قد طلب من أخ له كبير وابن له دون ذلك، أن يذبحوا الشاة ويستخلصوا شحمها حتى يملأوا المخرفة منه.

وعندما انتهى الطعام وتغدى الأعرابي وشرب القهوة كانوا فرغوا وجاءوا إليه بالودك فأفرغه في (نحو) من السمن والنحو وعاء السمن ونحوه من الجلد يكون في قدر القربة الكبيرة، وكسبوا لحم الشاة.

و(المنجرة) هذه على حدود سوق (الصناع) من جهة الشمال وبوصولنا إليها نصل إلى ذلك السوق الذي سبق كلامنا عليه.

وقبل أن أختم هذا الفصل أقول: إنه من العجيب أنني عند ما كنت طفلاً صغيراً ثم شاباً قوياً خالي الجسم من الأمراض ولله الحمد كنت أرى دكاننا هذا بعيداً من البيت بعداً شديداً، ولذلك لا أتصور أنني أقوى على التردد عليه مرات متعددة في وقت واحد.

أما الآن وقد كبرت بل وشخت- من الشيخوخة- فإنني أراه قريباً جداً يخيل إليَّ أنني يمكن أن أتردد إليه ماشياً مرات عديدة بدون أن أشعر بأي تعب.

ولا شك في أن مرجع ذلك إلى أننا في القديم كانت شوارعنا ضيقة، وكان تجولنا محدوداً، لذلك كنا نرى المسافات متباعدة، بخلاف ما عليه الأمر الآن.

وقد قست الآن ما بين بيتنا ودكاننا مع الطريق التي كنت أذهب منها وأغدو فبلغت المسافة ٩٥٠ متراً.

وهذه مسافة قصيرة ولكن هممنا كانت متدانية لكوننا لا نتباعد عن بيوتنا في الغالب، وليس هذا كلاماً عاماً على كل أهل بلدتنا لأن منهم من يقضي أكثر عمره في البرية ذاهباً إلى الأمصار العربية مثل العراق والشام ومصر مثل العقيلات ومنهم من يتجول مع أهل البوادي والقفار، طلباً للرزق وسعياً لكسب لقمة العيش.

أما نحن الحضريين فإن حالنا ما ذكرته وقد طرأ على ذهني أنه ربما كان رؤيتي المسافات التي كانت طويلة قصيرة الآن سببها أنني زرت أنحاء العالم كله شرقه وغربه وشماله وجنوبه، ولا شك أن لذلك دخلاً في الموضوع لأنني كنت أضطر إلى السير على قدمي في الخارج مسافات طويلة متجولاً على المدارس والمؤسسات الإسلامية ومشاهداً للمساجد ولا أدري عن ذلك.

وأعود مرة ثانية إلى ذكر العاملين في بيتنا قبل خمس وسبعين سنة- فأقول إنه فيما عدا والدي وعمله في الدكان الذي وصفته فإن بعض أهل البيت يعملون لكسب المعيشة بطريقة غير مباشرة فزوجته الثانية، بل هي الأولى قبل أمي وهي ابنة عمه تعمل في تهيئة (ملح البارود) للبيع، ذلك بأن ملح البارود يقع العبء الرئيسي في عمله على الذي يدقه وهو ضربه في نقيرة من الصخر القوي الصلد، التي فيها حفرة يوضع فيها مقدار معين من الملح وتدق بعمود ضخم لا يستطيع رفعه إلاّ قوي فضلاً عن أن يعمل فيه رفعاً وخفضاً في الدق، ولذلك لا يعمل فيه إلاّ حرفي قوي دقيق النظر.

فكان والدي يستأجر لذلك (حرفيّاً) وهو العامل اليومي يدق الملح بهذا العمود في النقيرة من طلوع الشمس حتى آذان الظهر دون أن يفتر، وأعرف عدداً من الذين كانوا يعملون عندنا لهذا الغرض ولكنني لم أرد أن أذكر أسماءهم لأن أولادهم وأسرهم ربما لا يحبون أن ننوه بأنهم كانوا من العمال عندنا الذين يقومون بأعمال لا يستطيع القيام بأمثالها إلاّ عمال محترفون بمعنى أنهم متمرنون على العمل الشاق.

فكان العامل منهم يأتي إلى بيتنا قبيل طلوع الشمس فيجد والدي قد أعد القهوة له ومعها فكوك الريق وهو من التمر فقط، وهذا أمر لا يحصل عليه سائر الحرفية، ضناً من الناس بالتمر، ولكن الحرفي الذي يكون عندنا يكون حرفياً مميزاً لأنه لابد مع قوته أن يكون بصيراً بالضرب بالعمود، لأنه إذا ضرب جانب النقيرة، وهي صخرة، فمن الجائز أن تتولد شرارة تعلق بالبارود وتأكل العامل قبل غيره.

ولكن هذا لم يحدث عندنا قط ولله الحمد، وإنما سمعنا بذلك وأن بني عمنا (ثار) فيهم الملح مرتين.

ويظل العامل يعمل حتى وقت الغداء الذي يكون في نحو العاشرة ضحى وهو التمر فقط إلا إذا كان عندنا لبن زائد عن حاجة أهل البيت فإننا نضع له لبناً مع التمر.

وبعد صلاة الظهر (يتقهوا) مع والدي أي يشرب القهوة ثم ينصرف، وأجرته تختلف حسب ارتفاع أجور العمال وانخفاضها.

ومع أن عمله شاق فإنه مغبوط لأنه يعمل في ظلٍ لا تصل إليه الشمس، إذْ كان والدي بنى مكاناً خاصاً منعزلاً عن البيت ملحقاً بالقهوة التي لا تأتي إليها النساء والأطفال يعمل فيه ذلك العامل.

كيف يصنع البارود:

من أجل أن تتصور كيفية صنع البارود من أول كونه مواد أولية لا أهمية لها حتى يصبح بعملنا مادة متفجرة خطرة أقول:

إنه مركب من ثلاثة عناصر:

أولاً ملح البارود: وهو المسمى علمياً بالبوتاس أو البوتاسيوم وبعضهم يسميه نترات البوتاسيوم.

وكان الناس يحصلون عليه من معادن في بلادهم مختلطاً بالتراب كما يكون الملح المختلط بالتراب فيطبخون ذلك التراب ويحركونه ثم يأخذون ماءه وينشرونه فيتجمد الملح على وجهه فيأخذونه ويستعملونه، ولكن هذا قليل، ويحتاج إلى جهد كبير، وقد رأيت والدي يعمله مرة عدم فيه ملح البارود المستورد الذي كنا نستورده وهو على هيئة السكر، ويكون في أكياس كأكياس السكر.

فيؤخذ من هذا الملح الأبيض الذي صار اسم المستورد منه (الشورة) رطل مثلاً وهذا هي (الدَّقة) أي المقدار الذي يدق منه في المرة الواحدة، وذلك بالميزان، لأن جميع أخلاط البارود لابد أن تكون بالميزان لأنها إذا زادت أو نقصت اختل تركيبه ففسد، فيدق ذلك الرطل وحده ودقه سهل جداً.

ثم يضاف إليه سُدس وزنه أي جزء من ستة أجزاء منه من الكبريت الأصفر الذي يرد إلينا على هيئة مراود وهي التي تبدو كما لو كانت صبت في قوالب مستطيلة بقدر يزيد على الإصبع قليلاً ويدق هذا الكبريت وحده، ودقه سهل.

ثم يؤتى بسدس الرطل أي بسدس وزن ملح البارود وهو الجزء من ستة من الفحم الذي لابد من أن يكون فحم شجر ذي غصون مجوفة خفيفة، لأن الفحم الصلب لا ينفع، فكنا نستعمل خشب العُشر، وأغصانه لأنه كذلك

وهو أيضاً متوفر في البرية، ومثله في الصلابة أغصان الرمان والعنب ولكنها غير متوفرة.

فيدق هذا الفحم الذي وزنه سُدس وزن الملح الأبيض وحده، ثم تخلط العناصر الثلاثة ويوضع عليها ماء في فنجان يقدر لذلك بحيث لا يزيد الماء الذي يوضع عليها ولا ينقص.

وهذا العمل يعمله أهل البيت، وهم بالذات زوجة والدي ابنة عمه، أما والدتي فإنها لا تعمل أي عمل في البارود، وإنما شأنها في عمل البيت كالطبخ ونحوه.

وبعد ما ذكرناه من خلط أجزاء البارود الثلاثة يأتي أشد العمل وهو دقه بالنقيرة لمدة طويلة بحيث يصبح كله أسود اللون بعد أن كان ملوناً لأن أجزاءه تختلط بعضها ببعض، ويغلب عليه لون الفحم الذي هو السواد، ولا يقوم بهذا العمل إلاّ حرفي قوي.

وبعد أن ينتهي من الدق لابد من (القطع) وقطع البارود أن ينخل في ثلاثة مناخل بعضها أصغر من بعض أي أضيق فتحات من بعض، وتكون معه عظام كالكعاب وأشياء خفيفة، تضغط عليه ضغطاً خفيفاً بدون أن تسحقه، وذلك من أجل أن يغدو حبيبات كحبات الحبة السوداء.

ولابد من إضافة شيء من الماء إليه عند (قطعه) أي نخله بالمناخل، وبعد ذلك ينشر في الشمس ليجف ويصير باروداً متفجراً جاهزاً للبيع ومن ثم الاستعمال.

وهو مربح جداً لأنه لا أحد يعرف أن يعمله مثلنا ولا يستطيع أحد أن يعمله كذلك، وقد اختصت به أسرتنا دون غيرها من أسر أهل بريدة، فمنذ أن أخذه عم والدي من العيسى الذين جاءوا من شقراء يصنعونه وقد أغناهم الله عنه فاشتغلوا بالتجارة وأثروا ثراء أمثالهم في تلك العصور واشترى أحد

أعمام والدي منهم النقاير والأعمدة التي يدق فيه الملح، وبدأ يعمله فرأى أنه مربح وشاركه بعد ذلك إخوانه.

أقول: إن صنع البارود مربح جداً أو ربما صح القول بأن الريال فيه يكسب ثلاثة أريل أو أربعة في أوقات كان الناس فيها يموتون جوعاً أو يكادون، ومشكلته أن ليس كل ما ينتج منه يباع، بل إنه لا يباع منه إلا مقادير معينة وبخاصة في غير فصل الصيف.

أما في فصل الصيف فإن الذي يباع منه كثير لأن الطيور المهاجرة تأتي في أول الصيف وفي آخره فيحتاج الناس إلى شراء البارود لصيدها.

وذلك لضعف القوة الشرائية عندهم، بل إنها تكاد تكون معدومة عند الفلاحين لأنهم يعيشون حياة كلها عالة على الدَّين من التجار فمن أين لهم الحصول على المال الذي يشترون به بارودا وقموعاً ورصاصاً.

لقد عالج بعضهم أو لنقل كثر منهم هذا الأمر بإهداء أول ما يصطادونه من الطيور إلى والدي مع حاجتهم الشديدة إليها لأنهم يكونون قد مضت لهم مدة لم يأكلوا فيها لحماً، ولكنهم يهدونها إلى والدي لأنه يعوضهم عنها بارودا وما يتعلق به وبخاصة البارود فيصطادون به أضعاف ما أهدوه عليه من الطيور بطبيعة الحال، ولذلك تكثر الطيور المصطادة عندنا حتى تبلغ ثمانين طيراً أو نحوها في يوم لآن بعضهم إذا صاد عشرة أهدى منها ثلاثة أو أربعة إذا كان قادراً على ذلك.

فكنا نعيش معيشة مرفهة في الصيف، لأن ذلك مضاف إلى ما يأتي إلى والدي من دكانه الذي يبيع فيه بضائع تصلح للأعراب وأهل البادية.

ولذلك كان والدي يقول لنا ممازحاً: أنشدكم عن ناس ملوك بالصيف صعاليك بالشتاء .

ثم يقول: إنهم نحن، وذلك بأن الشتاء هو موسم كساد بيع البارود.

وماذا عن بقية أهل البيت؟

أراني قد أمعنت في ثرثرتي المعهودة حتى أبعدت أو كدت عن الموضوع الأساسي وهو إسهام من في البيت في حالته الاقتصادية ومنهم والدتي وهي لا تسهم فيما ينفع البيت مباشرة ولكن فيما يفيدها هي، والعادة أن الزوج إذا رأى أن زوجته تحصل على دخل فإنه يشعر بأن ذلك يخفف عنه شيئاً من النفقة عليها.

فوالدتي رزقت حساً فنياً جعلها تستطيع تطريز ثياب العرس الحريرية التي تسميها العامة (ثياب الكين) والكين هنا محرفة عن الصين فهي الثياب الحريرية الصينية وتلك الأثواب كانت لازمة للعرس يسوق الزوج إلى زوجته واحداً منها عندما يرسل الجهاز وهو المهر غير مخيط فيخيطه أهلها وتلبسه ليلة الزفاف، ولكن خياطته وهو حريري ليست بالسهلة، وبخاصة إذا كان يحتاج إلى تطريز وخيوط من الزرى الملون فكانت والدتي تخيط الثوب الواحد بريال فضي واحد، وذلك شيء له أهميته في ذلك الوقت.

وهي إلى ذلك تخيط العباءات الفاخرة من عباءات النساء وتطرزها بخيوط سود ولا أدري بكم ذلك لأنها تركت هذا الأمر كله فيما بعد.

مسجد الحي:

مسجد الحي في ذلك الوقت الذي عقلت فيه الأمور وهو عام ١٣٥٠هـ هو المكان الوحيد الذي يجتمع فيه أهل الحي بعضهم إلى بعض وهو يضمهم جميعاً ويجتمعون فيه خمس مرات في اليوم والليلة، هي أوقات الصلاة جماعة، لا يتخلف عن حضور الجماعة منهم أحد لأن من تخلف عن الجماعة تسقط منزلته عند الناس، وترد شهادته عند الحكام، فلا تقبل شهادته

ويرفض أكثر الناس وبخاصة المتدينين معاملته لأنهم يقولون (اللي ما يخاف الله خف منه).

ولذلك كان بعض الناس يحرصون على شهود صلاة الجماعة لهذه الاعتبارات إذا لم يكن حضرها احتساباً للأجر، وأكثرهم مواظب عليها احتساباً للأجر أما الذي يفعل ذلك لدواعٍ اجتماعية فإنه القليل النادر.

وقد بلغ من حرصهم على أن يؤدي الناس الصلاة جماعة أنهم يعدونهم في صلاة الفجر خاصة لأنها مظنة التضييع من أجل النوم، فكانوا ينادون على جماعة المسجد واحداً واحداً كل واحد ينادونه باسمه فيقول الذي يعدهم وهو في العادة مؤذن المسجد: فلان بن فلان، فيرد عليه بقوله: نعم، أو خير، والأكثر يقول حاضر، يعني أنه حاضر في المسجد للصلاة.

وإذا تخلف أحد منهم عن حضور صلاة الفجر كان لمؤذن المسجد الذي يعده أن يأخذ شماغه من فوق رأسه في السوق الذي هو سوق البيع والشراء الذي يحضره كثير من الناس أو في الشارع حيث لابد أن يراه أحد من الشخصيات المهمة، وفي ذلك عقابان: الأول مادي لأنه إذا أخذ شماغه لا يعاد إليه وإنما يتصرف فيه المؤذن تحت نظر الإمام في العادة، إلاّ إذا كان ذلك لأول مرة وتعهد أنه لن يعود لترك صلاة الفجر مع الجماعة ثانية أعاده إليه الإمام، فإن تكرر ذلك منه لم يعده وصودر شماغه، وتلك خسارة مادية كبيرة بالنسبة إلى حالتهم المالية ودخلهم الاقتصادي لأننا لاحظنا من القصص التي سمعناها من فعلهم بعد ذلك أن بعضهم يستدين ثمن شماغه.

والعقاب الثاني: عقاب معنوي وهو التشهير حيث يمشي مكشوف الرأس ويعرف الناس أن شماغه أخذ منه لأنه لم يصلِ الفجر مع الجماعة.

إننا لم نعرف عن جماعتنا أهل بريدة إلاّ أنهم يعدون الناس أي ينادون عليهم في صلاة الفجر ليعرفوا الحاضر منهم للصلاة من الغائب عنها،

ولكننا سمعنا عن بعض القرى والبلدان التي يعتبر أهلها من المتشددين من يعدون الناس لصلاة العشاء أيضاً، ولا يقتصرون على صلاة الفجر.

وبسبب أخذ شماغ من لم يصلي الفجر مع الجماعة كان كثير منهم يحرصون على شهود الجماعة بسبب الخوف من ذلك، ولهذا السبب بل الأسباب صاروا كلهم على وجه التقريب يحضرون الصلوات في الجماعة وصار المسجد بمثابة المنتدى الوحيد الذي يجتمعون فيه، لأنه لا يوجد مكان عام يوجدون فيه باستمرار وبانتظام غيره.

وإمام المسجد:

وإمام مسجد الحي هو الذي يرشد الناس ويزجي إليهم النصائح الدينية بين الفينة والأخرى، وغالباً ما يكون له درس منتظم سواء أكان درساً يوجهه إلى كل الجماعة أم كان درساً يجلس إليه فيه من يريد أن يتعلم العلم، وذلك بطبيعة الحال درس مجاني.

وكل طلبة العلم الورعين مر بهذه المرحلة أي أنه قرأ أول الأمر على المطوع أي درس عليه بعض الكتب التي تتعلق بالعقيدة مثل ثلاثة الأصول وكشف الشبهات للشيخ محمد بن عبدالوهاب حتى إذا ارتفع قدره قرأ (كتاب التوحيد) للشيخ محمد بن عبدالوهاب أيضاً والأربعين حديثاً للإمام النووي المعروفة بالأربعين النووية لكون الإمام النووي هو الذي اختارها، فإذا ما حذق ذلك انتقل للدراسة على الشيخ الذي هو أكبر من مطوع الحي بطبيعة الحال.

وقد مررت أنا بذلك بعد أن كبرت قليلاً إذْ قرأت على إمام مسجد الحي وهو الشيخ صالح بن إبراهيم بن كريديس أول ما طلبت العلم في المسجد ضمن حلقة فيها خمسة أو ستة معي كلهم كان أكبر مني سناً ومنهم خالي إبراهيم بن موسى العضيب وأخوه صالح بن موسى العضيب

ومحمد بن طامي وإبراهيم بن صالح الصايغ مؤذن المسجد ومحمد بن رويسان.

إن من حسن حظ أهل الحي أن يكون في مسجد الحي إمام على درجة جيدة لأنهم ينبههم بنصائحه وإرشاداته إلى ما يحتاجون إليه من أمور دينهم حتى وإن لم يسألوه، وذلك في الأشياء المتكرر مثل أحكام صدقة الفطر وهي تدفع في آخر شهر رمضان.

وشيء مهم آخر وهو تعليمهم الدين- كما يسمونه- وهو سؤالهم عن أمور دينهم لا يستثنى من ذلك أحد، غير أنه لا يعلمهم أولاً، وإنما يفترض أن ما يسألهم عنه هو أمر معروف لهم، ومن ذلك هذه الأسئلة:

ما دينك؟ من ربك؟ من نبيك؟ فيجيب المسئول : ربي الله، وقد يقول: ربي الله الذي رباني، وربى جميع العالمين بنعمته وهو معبودي ليس لي معبود سواه.

وإن كان لا يفهم من معنى ذلك شيئاً.

ويجيب على السؤال الثاني بأن ديني هو الإسلام وهو الإقرار لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، وعن السؤال الثالث: نبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو خاتم النبيين والمرسلين.

ثم تأتي الأسئلة الفقهية التي لابد من سؤال كل شخص عنها، وإن لم يسبق تعليمه بها مثل نواقض الوضوء وشروط الصلاة.

ويكون السؤال لكل واحد أمام الجماعة كلهم بعد صلاة الفجر، فينادي مؤذن المسجد فلان بن فلان فيأتي ويجلس مواجهاً لإمام المسجد، فيسأله هذا أمام الجماعة وكثيراً ما يرتبك بعضهم أو يقول خطأ فيضحك منه بعض الجماعة ضحكاً فيه استهزاء.

وأذكر مرة سمعت فيها وأنا صغير أحدهم يسأله الإمام عن نواقض الوضوء ومنها (مس المرأة بشهوة)، فقال: (ومس المروة بشهوة) فقال له المطوع مس المرأة بشهوة، فأجاب بأن قال (المروة) لأنه لا يفقه معنى ما يقول.

وكان إمام المسجد على درجة من المعرفة بأحكام الصلاة لأنه الذي يتصرف حينما يسهو في الصلاة حسب ما تنص عليه كتب الفقه الحنبلي.

وبعض الأئمة يذكر مسائل لا تتعلق بما ذكر وإنما هي من الاجتماعيات وقد ذكرت نماذج مما كان يقوله إمام الحي عندنا الشيخ صالح بن كريديس رحمه الله في ترجمته في (معجم أسر بريدة).

ومسجد الحي الذي نقيم به لأن والدي يملك البيت الذي نسكنه وهو هذا الذي أثار هذه الذكريات القديمة في نفسي هو (مسجد ابن شريدة) نسبة إلى عبدالرحمن بن شريدة، والد الوجهاء والأثرياء من آل شريدة ومنهم محمد بن عبدالرحمن الشريدة زعيم بريدة في وقته، وقد بناه احتساباً للأجر من الله تعالى.

وهذا المسجد يعتبر كبيراً وجماعته كثر لأنه آخر مسجد في بريدة من جهة الشمال والشرق الشمالي والغرب الشمالي، فهو المسجد الوحيد في تلك المنطقة شمال بريدة، وهو ظاهر الموقع الآن فهو يقع على شارع الصناعة ومحرابه على الشارع نفسه وهو أول مسجد يراه من يسلك شارع الصناعة متجهاً جهة الشمال فيرى منارته بعد منارة الجامع.

وأول مسجد أسس خلفه من جهة الشمال هو مسجد ابن مساعد وهو الأمير عبدالعزيز بن مساعد آل سعود أمير منطقة حائل وكان إنشاؤه في عام ١٣٥٧هـ، ثم مسجد العييري وهو أحمد بن علي العييري الذي يقع إلى الشرق من مسجد ابن شريدة.

أما أول مسجد أسس غربه فكان مسجد العبودي نسبة إلى ابن عم والدي عبدالكريم بن إبراهيم العبودي الذي أخرجه من أرض كانت ملكاً لوالده إبراهيم بن عبدالكريم العبودي وهو عم والدي، واشتراها من تركته، وبناه عبدالكريم محتسباً الأجر من الله في ذلك.

أرباب الصناعات في الحي:

لم تكن توجد في بريدة منطقة صناعية، ولم يكن أرباب الصنائع يسكنون وحدهم، بل كان الناس يسكنون معاً، ومنهم جميع أرباب الصناعات المعروفة آنذاك كالنجارة- بالنون- والحدادة والقصابة والخرازة والدباغة، وهذه هي الصناعات المعروفة، وإن كانت توجد صناعات أخرى ضيقة مثل الصياغة وهي صوغ الذهب والفضة ولا يمارسها إلاّ العرب الخضيريون.

وكانت بريدة تعج بأرباب الصناعات هذه لذلك كانت تصدر بعض مصنوعاتها إلى بلدان نجد الأخرى مثل الأواني النحاسية المشغولة والصناعات الخشبية كالأبواب والنوافذ، كما تصدر إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة النعال الجميلة التي يصح أن تسمى بالمطرزة وهي المنقوشة بنقوش فنية ملونة بخيوط من المعدن كالأشرطة ولكنها تخرز فيها بطريقة فنية متقنة.

ومع ما قلته من عدم وجود منطقة خاصة لسكن أرباب الصناعات فإنه صار من المتعارف عليه أنهم يكثرون في منطقة دون أخرى، وليس معنى ذلك أنها تكون لهم دون غيرهم، بل إن الجميع يساكنونهم فيها.

إلاّ صناعة واحدة هي الدباغة فإن كثيراً من الناس لا يطيقون أن يسكنوا بجوار من يمارسها، إلاّ إذا كانت الحاجة تلجئهم إلى ذلك، لأن رائحة الدباغة الكريهة فيها أذى لمن يكون بقربها.

وأذكر أن أحد الدباغين بنى بيتاً له في حارة جديدة في شمال بريدة وأراد أن يجعل فيه مدبغة له، فشكاه أهل الحي إلى الشيخ عمر بن محمد بن سليم، وكان قاضياً في بريدة فمنعه من ذلك، وقال: لا يجوز أن تنشئ مدبغة في هذا الحي الجديد، فقال له الدباغ: لماذا يا شيخ وأنا كنت في بيتي القديم لدي مدبغة ولم يعترض أحد؟

فقال الشيخ: مدبغتك في بيتك القديم قديمة والذين جاءوا من بعدك جاءوا على أساس أنها موجودة أي أنهم عارفون بذلك، أما إحداث مدبغة في حي لم تكن فيه فإنه لا يجوز إذا كان أهل الحي لا يوافقون على ذلك.

وأذكر أن مسجد الحي عندنا وهو مسجد ابن شريدة كان يسكن في البيت الملاصق له من جهة الشرق دباغ معروف فكان جماعة المسجد يتأذون من رائحته إذا فتح المدبغة وهو لا يفتحها في كل وقت، ولذلك لا تنبعث الرائحة الكريهة منها في كل وقت، وإنما يكون ذلك في وقت دون آخر، فشكاه أهل المسجد إلى الشيخ عمر بن سيلم مطالبين بمنعه من الدباغة في هذا البيت الملاصق للمسجد، فذكر للشيخ أن بيته قد بني قبل المسجد، وأنه كان يدبغ فيه قبل إنشاء المسجد، فلم يمنعه الشيخ بالقوة، وإنما نصحه بمراعاة مشاعر جماعة المسجد الذين هم كثير ويتأذون برائحة المدبغة.

أما الصناعات الأخرى فإنها تمارس في الغالب في الأسواق الخاصة بها في بريدة مثل الحدادة التي يسمونها الصناعة في سوق الصناعة والخرازة في سوق الخراريز الخ.

ونعود إلى الحديث عن مسجد الحي.

فأقول: إنه بالنسبة إليَّ هو أول محل عام أدخله، بل أتردد عليه، فكان والدي رحمه الله يأخذني معه إلى المسجد، وأنا لا أعقل شيئاً من

أمور الصلاة حتى إنني أذكر أنني فوجئت وأنا صغير بأن الناس يقولون شيئاً معيناً في الصلاة من قرائة أو تسبيح وتحميد وإنما كنت أظن أنهم يقفون ساكتين، لأنني أنا كنت أفعل ذلك، وكانت سني صغيرة لم تتعد خمس سنين في ذلك الوقت، لذا لم يرد والدي أن يثقل عليَّ بتعليمي القراءة في الصلاة، وحتى التسبيح والتحميد في الركوع والسجود.

كان مطوع مسجدنا الشيخ صالح بن كريديس، رحمه الله إذا رأى من بعض الأطفال قلة أدب في المسجد الذي معناه عدم الانضباط أو عدم التزام الهدوء فيه يذكر أهل المسجد بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: جَنِّبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم.

وإن الصبيان والمجانين لا ينبغي أن يدخلوا المسجد لأنهم من غير العقلاء ومن غير المكلفين بالعبادات أصلاً، ولكن كان بعض الناس يحضرون أطفالهم معهم إلى المسجد وهم يعرفون أن أطفالهم منضبطون، ولن يشوشوا بفعل أو قول على المصلين، وكان والدي يشعر بأنني واحد من هؤلاء، لذلك كان يذهب بي إلى المسجد وأنا صغير ولا يعترض أحد على ذلك.

وقد كان يذهب بي إلى المسجد بدافع الرغبة في أن أتعود على الذهاب إلى صلاة الجماعة منذ الصغر، وهو الذي يقوله كثير من الناس الذي يحضرون أطفالهم من الصبيان إلى المسجد، ولكنه كان يحدوه إلى ذلك شيء آخر وهو أن يشعر أن له ابناً صار قادراً على أن يذهب به إلى المسجد.

والمدارس في الحي:

توجد في الحي الذي نشأت فيه مدرسة واحدة هي الكُتَّاب الذي سبق الكلام عليه وصاحبه هو سليمان بن عبدالله العمري، وقد أدخلني والدي فيه وعمري خمس سنين.

ولكن كانت توجد مدرسة في حي يقع جهة الغرب الجنوبي من حينا لصاحبها عبدالعزيز بن صالح الفرج وهي أكبر من مدرستنا.

وما يتعلق بالطب:

ولا يوجد شيء يتعلق بالطب كما يعرف الآن، لا مستشفى ولا مستوصف ولا طبيب ولا صيدلي ولا ممرض، وأكثر الناس عندنا لم يكونوا يعرفون معنى هذه الكلمات لو سمعوا بها لأنهم لا يتصورونها.

وإنما الطب ينحصر في الطب الشعبي الذي يمارسه طائفة من المجربين وأهم ما فيه الكي ويقوم به متطوعون ولكن البارعين فيه منهم قليل.

وهنالك من يقلع الأضراس محتسباً الأجر من الله كما سبق، كما أن الفصد والحجامة معروفة وبخاصة الحجامة التي لها سوق رائجة في فصلي الربيع والصيف، وكذلك شرب المسهل لابد منه في الربيع وأول الصيف من كل عام يقولون: إنه ينظف البطن ويخرج القوامَّ- بتشديد الميم- وهي الديدان منه.

سرح الغنم:

من أكثر الأشياء ظهوراً في حينا في ذلك الوقت (سرح الغنم) وذلك أن كثيراً من الناس يقتنون الغنم من أجل اللبن ولكنهم لا يصبرون على أن يشتروا كل العلف التي تحتاجه لذا يرسلونها كل يوم مع راعٍ يذهب بها إلى المرعى صباحاً ويعود بها إلى المدينة مساءً.

ففي الصباح المبكر يخرج كل منهم بعنزه أو ماعزه أو شاته أو شياهه من بيته ذاهباً إلى الحوش الذي يجمع فيه الراعي الغنم فيخرج بها الراعي من البلدة مع شروق الشمس، وعندما تقارب على الغروب يكون قد عاد بها وغالباً ما تغرب الشمس قبل أن تصل الغنم إلى بريدة.

ومن المشاهد التي انطبعت في ذهني وأنا صغير في ذلك الوقت أن والدي رحمه الله كان لديه غنم وهي هنا المعزى التي تحلب فكان يأخذني معه لأرى سرح الغنم فيقبل السرح وهو رعية من الغنم إلى المدينة وللغنم فيه من شياه وماعز ثغاء مختلف، وأظلافها تثير من الأرض غباراً يكاد يغطي الغنم نفسها فيدخلها الراعي إلى الحوش الكبير ويقف عند بابه ويأتي كل شخص وغالباً ما يكون صبياً أو صبية وأحياناً يكون امرأة متحجبة فيأخذ غنمه والراعي يلاحظ ذلك فلا يأخذ أحد غنم غيره و هذا يحدث في الغالب بالغلط، إلاّ أنه يصحح عندما تعود إلى الراعي غداً، وإنما المشكلة فيما إذا تعمد أحدهم أخذ شيء من الغنم وليس له منها شيء، وهذا أيضاً فيه صعوبة لأن الراعي يعرف أرباب الغنم، وفي كثير من الأحيان يعرف الغنم ذاتها التي يأتي أهلها لأخذها منه، وإنما يأتي فقد الغنم من كون الراعي قد ينسى واحدة منها مختبئة خلف شجرة أو مبعدة عن بقية الرعية فلم يرها عندما أراد الرجوع إلى المدينة.

على أنهم جميعاً يسمون الغنم بوسم مميز وهو كي غالباً ما يكون على أذن المعز بمثابة العلامة التي لا يمحوها الدهر، فحتى لو سرقت العنز أو الشاة فإنها لابد أن تعرف إلا إذا غيبها سارقها بأن ذبحها وأكلها.

ويسمي أهل البيوت إرسال الغنم من بيوتهم إلى حوش الراعي في أول الصباح (تسريح العنز) وجلبها من حوش الراعي إلى بيوتهم في المساء (تهضيل) هَضّلَ عنزه جلبها فهي عنز هاضل، ولا يقال هاضلة، وقد ذكرت حال هذه اللفظة في كتبي اللغوية ومنها (معجم الألفاظ العامية).

وكنا ونحن صغار نعاني من تهضيل الغنم إلى البيوت في المساء لأن بعضها نشطة قوية أو كبيرة الحجم وبعضها تهرب فتحتاج إلى من يلحق بها فيمسك بها وقد تكون لها أظلاف حادة تطأ بها رجل الصبي فتؤذيها أو تدميها وفي الربيع وما بعده من الصيف تعلق بشعرها وصوفها أشواك من

أشواك العشب الحادة كالسعدان وغيرها، فإذا أمسك بها الصبي شاكته تلك الأشواك أي علقت بكفه وذراعه فألهبته.

والأدهى من ذلك إذا هربت منه إلى جهة غير الجهة التي يريد لها أن يأخذها إليها، فإنها تركض ويظل يركض وراءها حتى يتعب قبل أن يمسك بها، ولكن الناس اعتادوا في مثل هذه الحالة أن يساعدوا الصبي أو المرأة على الإمساك بالعنز، أما إذا كان صاحبها رجلاً سوياً فإنهم يتركونه يتولى ذلك بنفسه، افتراضاً بأن ذلك لا يشق عليه.

وأذكر بهذه المناسبة مثلاً شائعاً عندهم وهو أن أحدهم أراد أن يقتني عنزاً من أجل لبنها، ولم يكن عنده صبيان ولا بنيات صغار يمكن أن يذهب أحد منهم بها إلى حوش الغنم الذي ينطلق منه الراعي بغنمه إلى البر فأفلتت منه وظل يلهث خلفها حتى أمسك بها وأدخلها حوش الغنم وعندما عادت الغنم مع غروب الشمس واحتاج إلى تهضيلها فعلت به مثل ذلك.

والأدهى عنده أنها انطلقت منه مرة وضاعت في الأزقة فصار ينادي عليها في الليل قائلاً (يا من حفظ العنز جزاه الله خير؟ يا من شاف العنز الضايعة؟)

وقد وجدها بعد لاي، وكان تعب من إحضار علف لها وهو قليل من البرسيم من السوق لأن العشب في البر ليس كثيراً.

وكانت امرأته متدينة كثيراً ما تقول له: لازم تخاف الله بها العنز تشري لها زود علف.

فلما ملّ من معاناته العنز أخذ بأذنها إلى السوق وصار يحرِّج عليها أي ينادي عليها فيمن يريد قائلاً: من يشتري عنز يصير لها صبيٌّ؟

والصبي بصيغة تصغير صبي هو الأجير أو الخادم!

وليس التعب في الحصول على ما يكفي الغنم مقتصراً على إرسالها وجلبها من السَّرْح وإنما يكون الرعي في بعض الأحيان أو في أكثر الأحيان قليلاً في البر فيضطر أربابها إلى أن يعلفوها بعض العلف من عندهم، وحتى إذا لم يكن في البر رعي أصلاً كأن يستمر الجدب لأكثر من سنة أو لأكثر من موسم من مواسم المطر فإن أهل الغنم التي هي الماعز في الأكثر لا يرسلونها إلى البر أصلاً ، وإنما يبقونها في بيوتهم يعلفونها من عندهم.

ومن أنفع العلف لها نوى التمر وهو العبس بلغتهم العامية، وإن كان يحتاج إلى مؤنة إذْ يحتاج إلى رضح وهو تكسيره بحجارة حتى تستطيع الغنم أن تمضغه وتبلعه لأنها لا تستطيع ذلك إذا كان على حاله نوى كاملاً، وإذا لم يرضح فإنه يحتاج إلى أن ينقع في الماء حيث يوضع في قرو، وهو الحجارة المنقورة في الصخر حتى تكون كالقدر الكبيرة يوضع فيها وينقع في الماء من أجل أن يلين العبس إذا بقي في الماء، في هذا القرو أياماً عديدة.

وإذا لم يمكن هذا ولا ذلك فإن العبس يطبخ طبخاً للغنم حتى يلين تحت أضراسها فتأكله.

ومن ذلك تربيصه، وهو نقعه في الماء وهو أرخص وأسهل لأن طبخه يحتاج إلى حطب، ويحتاج إلى قدر كبير لا يتوفر عند كثير من الناس.

وعلى ذكر القدور الكبيرة وعدم توفرها عند بعض الناس أذكر هنا أن أهل الخير من رجال ونساء في بريدة يسبلون أحياناً أي يوقفون قدوراً كبيرة أو صحناً كبيراً لا يباع ولا يوهب، وإنما يبقى وقفاً يبذل لمن يحتاجه من الناس.

وهذا من جملة من الأواني والأدوات كالفاروع توقف لهذا الغرض، وأكثر من يوقف القدور هن النساء لأنهن يعرفن الحاجة إليها أكثر من معرفة الرجال بذلك.

أما الكتب العلمية والمصاحف فإنها هي الأصل في وقف المنقول، إذْ يشتري بعض أهل الخير كتاباً علمياً أو مصحفاً من المصاحف ويوقفه على أناس معينين، أو على مسجد أو على طلبة علم غير معينين تحت نظر عالم، أو إمام مسجد مشهور.

ونعود إلى ذكر المعزى،- وواحدتها عنز من غير لفظها- فنقول إنها تكون مريحة إذا كانت السنة ربيعاً لأنها تلد عناقاً أو تيساً وأحياناً تلد اثنين، ويحلبونها ولا يخسرون عليها شيئاً لأنها تأكل من عشب الربيع، ثم يلحق بها أولادها.

عالم آخر:

كل ما ذكرته فيما تقدم هو عالمي الذي فتحت عيني عليه، وعقلت أكثر ما عقلت فيه منذ ٧٥ سنة، ولكن والدي أخذ بيدي مرة وذهب إلى سوق بريدة العام، وقد كان ذلك مدعاة مكسب لي إذْ أن له أصدقاء كثراً يعرفون أنه لم يعش له ولد ذكر قبلي، ويفرحون بوجودي معه فيسارعون إلى إعطائي نقوداً يضعونها في مخباتي أي جيبي.

وإعطاء الطفل الصغير النقود ابتهاجاً به أمر كان مستساغاً عندهم، وهو تعبير عن الحب والتقدير لوالده و أهله، لأن النقود كانت قليلة عندهم ولا تدفع إلا في محلها وبتقتير شديد، وأذكر أن أحدهم وهو الوجيه محمد بن مسفر أعطاني ريالاً فضياً كبيراً وهو المسمى بالفرنسي أثقل جيبي مع ما أعطاني غيره من نقود نحاسية، ولم يمسها والدي رحمه الله، بل لم يمس منها، حتى ولا من أجل حفظه لي وإنما جعلها في جيبي وبقيت فيه حتى وصلنا البيت، فسارع يقول لي ويكرر هذا القول: عطها أمك، عطها أمك، يخشى أن تضيع، وهو يعرف أن أمي تحفظها لي لا له.

ولكن الشيء الأهم في زيارة السوق الكبير كان في جردة بريدة التي هالتني بسعتها وخفت خوفاً شديداً من عشرات بل مئات الإبل التي كانت

موجودة فيها لأنها سوق الإبل في بريدة، بل هي أكبر سوق للإبل في العالم حسب تعبير أحد المستشرقين.

وقد أخافني أن رأيت بعض الإبل كأنها تتعارك فيما بينها، ورأيت أحدها يعض الآخر، أو يحاول أن يعضه، فلصقت بوالدي وصرت كأنما أحاول أن أهرب من هذا المكان المخيف أو العالم الآخر الذي كان مجهولاً لي فضمني والدي إليه وقال: خلاص نروح فامتنعت عن الذهاب عن المكان، فقال لي يلومني: يعني ما تحب نروح ولا تحب نقعد هنا أي نظل هنا.

ورأيت طوائف من الأعراب بملابسهم المتسخة، ومناظرهم الخشنة والبدويات المتنقبات أمام الرجال، مما لم أعتد رؤيته عند نسائنا أهل الحضر لأن نساء الحضر يغطين وجوههن كلها عند الرجال الأجانب.

ويطل قصر بريدة الذي هو مقر حاكم منطقة القصيم على الجردة هذه، وهذا لم يثر انتباهي لأن إدراكي لا يصل إلى ذلك لصغر سني، ولكنني رأيت فيه أناساً جالسين على ما كانوا يسمونها (الحبوس) الواحد منها حبس وهي كالكراسي الملاصقة للجدار، ولكنها من الطين وربما صارت قاعدتها من الحجارة، وقد عرفت بعد أن كبرت أن أمير بريدة كان يجلس فيها محاطاً بأعوانه ورجاله المسلحين يرقب حركة البيع والشراء في جردة بريدة التي لا مثيل لها في أي بلد آخر من بلدان نجد من حيث سعتها ومن حيث حركة البيع والشراء فيها فهي السوق الرئيسية للإبل في نجد كما قدمت، ولكها أيضاً محاطة بدكاكين بجهاتها الثلاث الغربية والشرقية والجنوبية، أما الشمالية فهي التي فيها القصر.

وتتم في هذه الحوانيت الصفقات العديدة الكبيرة بالنسبة إلى حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية، ويتعامل أهلها مع الأعراب وأهل البادية فيربحون منهم ربحاً كثيراً لكونهم لا يعرفون أسعار السلع، وإذا عرفوها فإن أهل الدكاكين كثيراً ما يخدعونهم في السعر.

ومن ذلك ما حدثّ به أحد أصحاب تلك الدكاكين وسمعته بعد أن كبرت وهو أنه إذا كانت لديك سلعة تصلح للأعراب مثل العباءة السميكة أو القطيفة وهي السجادة الخشنة، وكان ثمنها عليك ٥٠ ريالاً مثلاً وأردت أن تبيعها أو طمعت في أن تبيعها على الحضري بواحد وخمسين ريالاً نقداً فإنك تستطيع أن تبيعها من البدوي بثمانين أو مائة ريال بعضها معجل أي يدفعه نقداً وبعضها مؤجل ثم تأخذ منه بعد ذلك ما يتيسر من المؤجل الذي لابد من أن يكون أكثر من قيمتها فيما لو بعتها على حضري بواحد وخمسين ريالاً حاضرة.

ثم إن الأعرابي يأتي إلى عميله الحضري وهو يطمع أن يستمر تعامله معه بسلع مما عنده مثل السمن والأقط والخروف والخروفين أو حتى البعير إذا كان دينه كثيراً فيعطيه إياه بثمن معتاد ولكن أصله قليل على الحضري صاحب الدكان فيأخذه منه، ويتخلص البدوي من ذلك الدين من دون أن يخسر شيئاً، لأن هذا مما ينتج عنده من دون أن يدفع فيه نقوداً.

والبدوي يحتاج إلى عميله الحضري صاحب الدكان إذْ قد يحتاج حاجة طارئة كأن يتزوج هو ولو كان قد تزوج من قبل، وغالباً ما يكون زواجه إذا كان من سائر أهل البدو وليس من زعمائهم، إذا ماتت زوجته أو فارقها، أو قد يتزوج ولده أو قريب له يحتاج إلى أن يشتري له قطيفة وهي السجادة الخشنة كما قلت، ولا يكون عنده نقود يدفعها ثمناً لها فيلجأ إلى عميله الحضري الذي لابد من أن يكون من أصحاب الدكاكين في الجردة هذه لكي يدينه ثمنها، فيجعل الحضري ثمنها مضاعفاً يعود عليه بعد ذلك بعضه أو كله.

ومن الأهم للبدوي على قصر إقامته في بريدة في العادة من أن يكون عميله مستعداً لكي يعيشه ويجعله ينام في بيته ليوم أو يومين لأنه لا

يستطيع أن يطبخ لنفسه لو أراد أن يطبخ، ولأنه لا توجد مطاعم ولا حتى مخابز فيما لو سخت نفسه بدفع النقود لذلك.

ولكن الحضري صاحب الدكان يطعم البدوي مما تيسر لديه، حتى إنه يكتفي في أكثر الأحيان بتقديم وجبة له من (تِمَّن) العراق وهو نوع رديء من أنواع الأرز وبدهنه بما تيسر من الإدام.

لقد رأيت في الحبوس التي عند قصر الإمارة لاصقة به رجلاً معه شيء لم أعرفه ولم أر مثيلاً لشكله من قبل، ثم رأيت آخر جاء وهو يحمله بيده اليسرى، فسألت والدي عنه، فقال: هذا السيف الذي تقطع به رؤوس الناس، فأجفلت من هذا الكلام فقال: لا تخف، ما يقطع إلاّ رأس اللي قطع رأس أحد قبله أي إذا اعتدى على أحد وقتله يقطع رأسه لأن فعل مثل ذلك بذلك الرجل.

ثم قال لي: هذولى رجال الشيوخ، معهم سلاح الحكومة واللي غيرهم ما يشيلون السيوف.

لقد قال ذلك وأنا لا أزال مندهشا بما في جردة بريدة، وبعض العامة الذين لا يدققون في عباراتهم يسمونها (جردة البعارين) جمع بعير أي التي تباع فيها الإبل.

وقد مر بي والدي على دكان خالي عبدالله بن موسى العضيب في الجردة ثم على دكان فهد بن محمد النصار غير بعيد من دكانه، وقال: يا وليدي: هذا فهد النصار ابن أخينا أي ابن عمي هو من السالم وحنا من السالم.

وقد فرح بي فهد النصار ودعا لي ولوالدي لأنه مثل والدي لم يعش له ولد ذكر من قبل إذ أن أكبر أولاده الذين عاشوا له هو (نصار) وهو أصغر مني بسنوات، ويومذاك لو كان مولوداً فإنه يكون صغيراً.

ومر على رجلين في دكانين متقاربين وقال هذا عبدالعزيز بن ناصر السالم وهذا محمد بن ناصر السالم وكلهم من (بني اخينا) ويعني من أبناء عمومتنا.

ولم يفته أن حملني حملاً على صدره ونحن نقطع الجردة من الغرب إلى الشرق وأنا لاصق به من الخوف حتى إذا خرج من سوق بريدة الشرقي الذي يحيط بالجردة خرج من الباب الشرقي الذي يسميه الناس (باب العقدة الشرقي) لأن (العقدة) هي السور وأشار إلى مكان بعيد ليس حوله شيء وإنما فيه شجر صحراوي قصير وقال: يشير إليه هذه هي المقبرة الشرقية التي دفنت فيها أمي، وأنا أزور قبرها وأسلم عليها وسوف أخذ ك معي إلى قبرها إذا كبرت قليلاً.

وقد صدق رحمه الله فكان يأخذني معه، في أيام الجمع والأعياد فيسلم على قبرها ويدعو لها، وقد قال لي مرة من دون أن أسأله لأنني صغير السن لا أدرك مثل هذه الأمور: وأبوي- يا وليدي- قبره ما هوب هنا، وإلاّ كان سلمت عليه، أبوي- الله يغفر له- قبره بالكويت لأنه مات هناك ودفن هناك.

ولم يذكر لي شيئاً عن قبر جده الثري الوجيه عبدالكريم بن عبدالله العبودي الذي يقال له ابن عبود أين يوجد، ولا أدري حتى الآن في أي المقابر دفن.

وجوه المسافرين:

يعيش قسم من أهل بريدة على السفر وما ينتج عنه من دخل فجماعات منهم من عقيل الذين هم تجار المواشي يسافرون بمواشيهم إلى الشام يتاجرون في الإبل ما بين نجد والشام وفلسطين ومصر ولكنهم يبطئون هناك، ويطيلون الغياب حتى إن بعضهم يغيب سنوات.

قد ذكر قصة بعضهم في هذا الأمر حين رأى ابنه لأول مرة بعد غيابه، ولم يعرفه أحد به فقال: من انت ولدٍ له- يا ولد؟ أو من هو أبوك يا ولد؟ فيجيبه الولد الذي هو مثله لا يعرفه أنا ولد فلان، وتكون مفاجأة للجميع أن السائل والمسئول هما رجل وابنه.

وبعض الذين يغيبون ويطول غيابهم تفصخ نسائهم منهم أي يخلعها القاضي من زوجها الغائب وبخاصة التي لا تأتي منه أخبار ولا مكاتبات ولا يعرف أحي هو أم ميت، فيذهب ولي أمرها إلى القاضي، وإذا لم يكن لها محرم من الرجال ذهبت مع أمها وذكرت له أن الزوج قد غاب ثلاث سنين أو أربعاً، وإنهم لا يدرون ما إذا كان حياً أو ميتاً، فيدرس القاضي حالتها ويسأل الثقاة من أهل حارتها أو من جيرانها ثم يعلن القاضي فسخ زواجها من زوجها، حسب أحكام الشرع الشريف.

أما الذين يذهبون منهم إلى العراق، أو أقطار الخليج مثل عمان والبحرين، وكذلك من يذهبون إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة فإنهم في الغالب لا يغيبون غيبة طويلة لأنهم يغيبون سنة أو سنتين، فتعتبر غيبة قصيرة إلا ما كان من بعضهم مثل جار لنا اسمه دحيم الرسي بقي في (دبي) أكثر من عشرين سنة ولكنه لم تكن في ذمته زوجة عندما سافر وعندما عاد إلى بريدة فتح دكاناً في السوق وتزوج.

وبعضهم يذهب إلى الأعراب يحمل بضائع مما يحتاجها الأعراب، ويبقى معهم شهوراً طويلة.

والجامع بين هؤلاء كلهم عند عودتهم هو أنهم إذا عادوا عادوا أول ما يصلون بوجوه غير الوجوه التي سافروا بها حتى إن من كان يعرفهم قبل ذلك لا يعرفهم بعدها، وذلك أن وجوههم تصبح سوداء من شدة لفح الشمس والسموم في الصيف ومن البرد والقشف في الشتاء.

وقد رأيت عدداً منهم لم أعرفهم إلاّ بعد أن قيل لي إنهم فلان وفلان فسألت والدي عن الذي جعل وجوههم هكذا؟ فذكر أن ذلك من تأثير الشمس في البر وأنه مؤقت يستمر لوقت قصير ثم يزول وترجع ألوانهم إلى ما كانت عليه.

وقد لاحظت بعد ذلك أن الأمر كما قال: إذْ لا تكاد تمضي أيام قلائل عليهم حتى تعود ألوانهم إلى ما كان معروفاً عنها من قبل، من بياض أو سمرة خفيفة.

والحواشيش أو الحشاحيش:

والحواشيش: جمع حشاش وهم الذين لا يحشون العشب وبعضهم يسميه الحش من البر بمعنى أنهم يأخذونه من البر، يحضرونه إلى أهل مدينة بريدة فيخزنونه إلى وقت الحاجة إليه في غير الربيع حيث يعلفونه مواشيهم يخلطونه بأنواع من العلف رديئة كالتبن أو قصب الذرة لأنه علف ممتاز.

وبعضهم يسميهم الحشاحيش، وكان من عادتهم أن يخرج الحواشيش جماعات، إذْ يخرج أهل البيت صغيرهم وكبيرهم إلى البرِّ، ويعملون في هذا العمل يكومونه كومة أو أكثر من كومة في البر فإن كان عندهم دابة يحملونه عليها إلى البلد وإلاّ استعاروا دابة وإذا لم يستطيعوا دفعوا أجرة لأحد الجمالين فيحمله لهم فيخزنونه في البيت مؤنة لمواشي اللبن كالبقرة والمعزى والشياه.

ووجود ماشية اللبن في البيت ليس معناه مجرد شرب اللبن للتغذية به وإنما معنى ذلك وجود زبد أو سمن يأدمون به عشاءهم، وتدهن النساء به شعورهن، وذلك مُجْزٍ اقتصادياً.

وقد سمعت مرة عندما كبرت أحدهم يقول لوالدي: إنه يعرف الرجل الذي في بيته لبن من الرجل الحاف، لأن الأول يكون وجهه يندي وفيه دم، أي تبين التغذية الجيدة عليه.

وفي البقرة التي تجعل في البيت نفع اقتصادي آخر وهو أن خثيها وهو رجيعها أو برازها تأخذه نساء البيت، بل يبادرن بأخذه قبل أن تخوضه بمعنى أن تخلطه بحوافرها عن غير قصد فيختلط بالتراب، ويصعب أخذه فتلتقطه المرأة بسرعة وكلما كان حاراً خارجاً لتوه من عند ذنب البقرة كان أصلح له فترصعه بالحائط أي الجدار، وجدرانهم كلها كانت من الطين الذي هو خشن بطبيعته يلزق به خثي البقرة، وتتركه المرأة كذلك حتى يجف، أو حتى ييبس تماماً إذا كانت ليست بحاجة عاجلة إليه، ثم تستعمله وقوداً للعشاء، لأنه يوفر الحطب الغالي، وتفرح النساء به وقوداً للمقرصة وهي الصاج المقبب الذي توقد النار تحته وتقرص المرأة القرصان عليه أي تجعلها قرصاناً رقيقة جداً.

ولكن المشكل في موضوع البقرة أن قليلاً منهم يستطيع أن يتخذها في داره فهي تحتاج إلى مكان متسع لها لابد من أن تصله الشمس حتى تنشف الرطوبة الناجمة عن بول البقرة وما ينتثر من الماء الذي يقدم لها لتشربه، ثم إنها لابد من دفع ثمن لها مهم لا يستطيع أن يدفعه إلاّ رجل ميسور الحال، ثم تأتي بعد ذلك مئونة علفها.

ملابس الناس:

عهدت الناس في ذلك الزمان وهو عام ١٣٥٠هـ وما بعده يتخوفون من قدوم الشتاء ويفضلون الصيف رغم حره عليهم، لأن برد الشتاء يحتاج إلى ملابس، وحتى إلى طعام جيد بخلاف الصيف الذي لا يحتاج إلاّ إلى صبر على الحر، ثم إن الصيف يحل في آخره موسم جداد النخيل وفيه يرخص التمر ويسخو بعض الأثرياء، وحتى بعض الفلاحين بشيء منه للفقراء.

أما الشتاء فإنه ليس فيه إلاّ الحرمان والألم، وما ينجم عنه من أمراض أو ما يعتقدون أنه ناجم عن البرد من أمراض وأهمها ذات الجنب وهو الذي يسميه الأطباء المحدثون بالتهاب الرئة، أو الالتهاب الرئوي وهو مرض شائع عندهم يكون أكثر ما يكون في الشتاء.

والشتاء يحتاج إلى ملابس لا يستطيعون توفيرها، فميسورو الحال يلبس الواحد منهم ثوبين أحدهما فوق الآخر، إذا أحس بالبرد، وأما الفقراء فمن أين لهم الثوبان، وهم لا يكادون يقدرون على الحصول على ثوب واحد.

ولطالما سمعت الفقراء منهم يسألون الأثرياء أو ميسوري الحال ومنهم أهل والدي ووالدتي أن يعطوهم صمط ثوب، والصمط من الثياب هو الخلق حتى يتدفئوا به في الشتاء.

أما الأغنياء فإنهم يلبسون ثوباً فوق آخر وأحياناً شماغاً مضاعفاً على الرأس أي شماغاً فوق شماغ أو تحت شماغ.

ويكون الشماغ الخلق تحت الجديد، والقليل منهم الذين لهم صلة بالأمصار يلبسون شالا من الصوف، إما أن يطلبوه من الخارج أو يعرض وحده للبيع فيحرج عليه الدلال في السوق فلا يشتريه ويقوى على دفع ثمنه إلاّ الأثرياء المترفون.

غير أن العباءة الثقيلة هي من علامة الثراء في الشتاء لأنهم يحتاجونها عند الخروج من البيت لأغراض عديدة من أهمها الخروج لصلاة الفجر في المسجد حيث يكون البرد شديداً.

ويتنادرون على البخلاء بأنهم لا يسخون بدفع ثمن العباءة التي تدفئهم، ومن ذلك قصة المثل الذي روي ونصه: (دفينا وعفينا حطي المحبوب في مكانه).

والمحبوب نقد ذهبي معروف ذكروا أن أصل هذا المثل أن بخيلاً كان يقول لزوجته إذا اشتد البرد في الليل بعد غروب الشمس: هاتي المحبوب نبي نشري لنا عباة حتى إذا طلعت الشمس وجلس في المشراق أحس بالدفء وقال

يخاطب امرأته: (دفينا وعفينا حطي المحبوب في مكانه) فلا يشتري حتى يخرج الشتاء وهم يتعذبون بالبرد كل ليلة.

ولذلك صارت للمشراق قيمة عندهم وهو الجلوس في الشمس لأنها حارة مدفئة فيجلسون فيها ويولونها وجوههم وتبقى فيه النساء أو الشيوخ كبار السن الذين لا يذهبون للعمل فيها حتى تسود وجوههم بسبب تعرضهم للشمس في المشاريق، كما تسود وجوه المسافرين في البر أو قريباً من ذلك.

ويشبه بذلك ما يحصل للشيوخ المسنين وكلهم يكون أبيض اللحية والشعر ولا يكاد يوجد منهم من يصبغ شعره بسواد، وإنما يوجد من يصبغها بالحناء ولكنهم قلة فالشيوخ ذوو اللحى البيض إذا اشتد البرد، ومع قلة الثياب عندهم يكبون على النار يستدفئون بها.

ويكون مع النار في الغالب الدخان الذي يصاحب النار أول ما توقد إذا أوقدت بحطب يابس ويستمر التدخين أي أن ينبعث الدخان من النار، فيقترب منه أولئك الشيوخ طمعاً في الاصطلاء على النار، ويكررون ذلك حتى يصبغ الدخان لحاهم بلون أصفر باهت، وقد لاحظت عدداً منهم صاروا كذلك، ولا يوجد ذلك في الصيف.

وثياب الرجال في ذلك الزمان في عام ١٣٥٠هـ وإلى سنوات بعدها من القماش الأبيض غير السميك، وهي من القطن ولا يعرفون لبس الصوف إلاّ في القليل النادر، ولمن اعتادوا على ذلك في مصر من الأمصار الذي يكونون قد عرفوه بأن سافروا إليه وعاشوا فيه فترة من الوقت.

ولا يعرفون الملابس الملونة إلاّ ما كان من بعض الأغنياء الذين لا يؤلفون ٢٪ منهم، ولا يكادون يصلون إلى هذه النسبة فإنهم يلبسون (الدقلة) وهي جبة سوداء تأتي من الهند مفتوحة من الأمام فتحاً كاملاً، ولكنها تغلق بأزارير فيها إلى منتصف قامة الرجل.

وهناك الزبون الذي يحضره تجار المواشي الذين لا يسافرون إلى الشام ومصر ويسمى (زبون الشام)، وهو حلة من القطن، أو قماش نحوه كالكتان تكون ناعمة الملمس ويتألف من قطعتين سفلى وهي (السديرية) التي هي الصديرية نسبة إلى الصدر لأنها توضع على الصدر وتزر كلها بأزارير من القماش أي الخيوط التي جعلت على هيئة كرة صغيرة، ولا يكون لها أكمام أصلاً لأن الزبون الذي هو الأعلى له كمان ضافيان وهو على هيئة حلة مفتوحة فتحاً كاملاً من الأمام.

ولكن لا يستطيع لبس هذا الزبون إلا الأثرياء الذين لا يخشون من إعلان ثرائهم على الناس، لأن بعض الأثرياء الذين يخفون ما لديهم من المال لأسباب عديدة منها الخوف من اللصوص ومنها الإصابة بالعين، ومن فرض الضرائب من الحكام، لا يلبسون مثل هذه الملابس التي تعلن بمجرد وجودها عليهم أنهم من الأثرياء.

أما ما يوضع في الأرجل اتقاء البرد فإنه قليل فأكثرهم من الفقراء لا يعرفون لبس النعال أصلاً لعجزهم عن دفع ثمنها أو لاعتيادهم على ذلك، وبعض متوسطي الحال يلبسون النعال في الشتاء والصيف.

أما بعض الأثرياء والمتوسطين في الحال فإنهم يلبسون (الزرابيل)- واحدها (زربول) وهي أحذية أو قل بالعربية الفصيحة أخفافاً- جمع خف- مؤلفة من قطعتين إحداهما الدسوس وهي كالجوارب من الصوف الخشن الغليظ تغزلها نساؤهم بالمغزل خيوطاً ثم ينسجنها جوارب غليظة غير أنيقة وهي من صوف غنمهم وأحياناً تكون من وبر الإبل، ويخيط خرازهم عليها لاصقاً بها أخفافاً ترتفع إلى كعب الرجل وتستر أعلى القدم.

ولا يمكن أن يخلو بيت في الشتاء من نار توقد فيه أما بيوت الأثرياء والميسورين فإن النار تظل توقد لأيام عديدة، ومن ذلك ما هو موجود في بيتنا حيث توقد النساء النار داخل البيت في الصباح تسوي النساء عليها العصيد أو

القشد ثم يتركنها جمراً عندما ترتفع الشمس ويذهب الجميع للمشراق للتدفئ به، إلاّ إذا كان الجو غائماً لا شمس فيه، أو كانت الريح جنوبية شرقية وهي التي يسمونها مطلع شمس فإنهم لا يجلسون في المشراق لأن الريح تهب عليهم فيه ولا يستطيعون اتقاء بردها.

وعندما يشتد البرد آخر النهار يلجئون إلى الكانون الذي هو موقد النار في القبة وتبقى النار حية لأنهم يطبخون عليها العشاء، ويبقى الجمر وليلهب ماقد يوضع عليها من حطب حتى موعد نومهم بعد صلاة العشاء بوقت طويل، ولا يعرفون تأخير طعام العشاء إلى ما بعد صلاة العشاء بل أكثرهم يأكلون عشاءهم قبيل المغرب، إلاّ المآدب الكبيرة فإنها تكون بعد صلاة العصر مباشرة.

وطالما سمعت والدي يقول: ورثوا النار لباكر، ومعنى ذلك أن يضعوا على جمرها رماداً حتى لا ينطفئ الجمر ويتلاشى حتى إذا احتاجوا إليها في فجر الغد وجدوها لا تزال حية.

الغزو والحرب:

كنت أسمع وأنا صغير أي في السن التي ذكرتها وكررت ذكرها وهي الخامسة أخبار الغزوات والحروب ولكنني لم أكن ألقى لها بالاً آنذاك لصغري، ولم أشهد في حياتي المبكرة حدوث غزو أو الخروج للغزو إلاّ مرة واحدة بعد ذلك بسنتين ونصف وبالتحديد في عام ١٣٥٣هـ حيث جاء الأمر من الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله إلى أمير بريدة وجماعتها أن الحكومة تقوم بتجهيز غزو إلى اليمن، ويجب أن ينطلق من القصيم كذا شاب وذكرت عدداً لا أحفظه، ولكنني أذكر أن أربعة أو خمسة من شمال بريدة منهم واحد من جيراننا ذهبوا إلى ذلك الغزو، وذلك عندما نقض إمام اليمن الإمام يحيى حميد الدين ما بينه وبين الملك عبدالعزيز من اتفاق مكتوب أو تفاهم غير مكتوب.

وقد غاب الغزو فترة لا أعرفها ثم عاد أكثرهم إلى بريدة.

أما أخبار الحروب والغزوات التي كانت تنشب بين الأشقاء في الحقيقة لأنها بين أهل نجد أنفسهم فإنها كثيرة وتستحق أن يكتب عنها كتاب صغير، والمراد من ذلك ما سمعته منها، وليس كل أحداث فيها فذلك يحتاج إلى مجلدات ومن أناس مختصين أو تلقوا المعلومات من أشخاص عاشوها، وقليل من يستطيع ذلك.

ولكن تمكن الإشارة هنا إلى أن بعض أمراء أهل نجد يأمر على الذين يتولاهم أن يزهبوا أنفسهم ويغزوا معه بمعنى أن يغزو معه ويعرضوا أنفسهم للقتل، إضافة إلى المشقة المحققة، ومع ذلك لا يصرف لهم حتى مئونة سفرهم من الطعام والقهوة مثلاً، وهو الزَّهاب.

وبعض الناس لا يعرفون كيف يستعملون البندق، ومع ذلك يكلفون بالغزو من ذلك ما روي لنا عن أحد الأمراء أنه أمر على رجل عنده قليل من المال أن يخرج للغزو فأخبره أنه لا يحسن أن يستعمل البندق في الرمي، وأنه لذلك يخشى أن يكون ذهابه سبباً في المتاعب للحاكم وجيشه لعدم معرفته إذْ قال للحاكم: أنا يا طويل العمر ما أعرف ارمي- بكسر الميم فقال له الأمير: أنا أبيك تِرْمَي – بفتح الميم- : تفدي واحدٍ جيد من جماعتنا.

فقال للأمير: وش تقول يا طويل العمر، إن كان أنا جبتّ بدالي رجل جيد يعرف يرمي تقبلون أنكم تتركونني؟ فقال الأمير: إذا كان ما هوب من جماعتنا نقبله.

لأن جماعته يستطيع أن يكلف منهم من يريد تكلفته بالخروج للغزو معه، والرجل الذي لا يعرف كيف يرمي وكان عنده شيء من المال كما قدمت، فاتفق مع شخص أخر أن يخرج إلى الغزو بدلاً منه في مقابل ثمانية ريالات.

قالوا فخرج الرجل البديل وقتل في تلك الغزوة فلما بلغ الخبر الرجل الذي دفع له الثمانية ريالات صار يردد لنفسه ولمن حوله: أرخص يا فلان- يعني نفسه- بثمانية ريالات يريد أنه افتدى نفسه بثمانية ريالات.

إن الغزو في ذلك الوقت لا يقتصر على الخوف من القتل ولكنه مظنة مشقات مجتمعة متضافرة مع الأحوال الجوية وهوام الصحراء من الحيات والعقارب والوحوش المفترسة كالذئاب الجائعة كلها تتهدد الغازي، إضافة إلى ما يتعرض له الغزو من جوع أو نقص في الأطعمة أو حتى إذا لم تكن ركابهم قوية أو كانوا جماعة يتعاقبون بعيراً واحداً يركب أحدهم والبقية يمشون على أرجلهم.

ثم إن الداهية الدهياء أن الغازي منهم يترك أسرته، أو على الأقل يترك أبويه وزوجته وربما يكون له طفل أو طفلان بدون رعاية، لأنهم في الغالب لا يكلفون المسنين بالغزو، وإنما يختارون من هم في وسط العمر والشباب أيضاً.

وقد تحدث للغازي إصابات دون الموت ولكن تنشأ عنها عاهات مستديمة، مثل أن تفقأ عينه أو عيناه أو تكسر رجله أو يده أو يجرح في بطنه أو حتى في رأسه.

إضافة إلى الأمراض التي لا يوجد أطباء لها يعالجونها، ولا توجد أدوية أو عقاقير تداوى بها.

نهاية الكلام:

ويقف الكلام في هذا المقام ليستريح القراء من هذا الذي يعده بعضهم هراءً من الهراء والله المستعان، وعليه التكلان.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم الناشر	٥
من الرياض إلى بريدة	٩
ومبانٍ في بيتي	١٢
لو نطق البيت	١٣
وسكان الزقاق	١٤
موسى بين عضيب	١٥
مدرسة سليمان العمري	١٥
صالح بن سليمان الغليقة	١٦
عبدالله بن سمحان	١٨
ناصر بن عبدالرحمن العبودي	١٩
محمد بن علي الطرياق	٢٠
علي الدِّخيل	٢٢
علي السكيتي	٢٢
علي بن منيِّع	٢٢
دحيم الرسي	٢٣
علي بن محمد الحامد	٢٤
عبدالله بن خليفة	٢٥
بيت زين العين	٢٦
العودة إلى الواقع	٢٨
قبل خمس وسبعين سنة	٢٩
وفاة الشيخ عبدالله بن سليم	٣٠
عمل والدي	٣١
اللعب في السوق	٣٤
عالم الصغار	٣٥
رفقاء الطفولة	٣٧

الموضوع	الصفحة
لماذا هذه الذكريات؟	٣٨
ماذا عن البيت نفسه؟	٣٨
القهوة	٤٤
الوجار	٤٦
أول حادثة أتذكرها	٥٠
مأدبة الختان	٥٣
مخزن القهوة	٥٣
الحوش	٥٤
المرحاض	٦٥
صُفّة الملح	٦٧
الطابق الثاني	٦٩
الطاية العلوة	٧١
أهل البيت	٧٢
وشيء جديد	٧٣
كيف نقضي يومنا؟	٧٤
الدكان الجديد لوالدي	٧٦
الطريق إلى الدكان	٨٦
جيران الدكان	٨٧
شيخي الخريصي	٩٢
والجيران الآخرون	٩٣
وجار آخر	٩٧
جار الجار	١٠٠
العودة للكلام على الدكاكين	١٠٥
سوق الصنّاع	١٠٧
خرافة آخرى	١١٢
أسواق بريدة	١١٤
دكاكين بريدة	١١٥
الطريق إلى الدكان	١١٧

الموضوع	الصفحة
بيت الحصان	١١٨
صاحبة الدكان	١٢١
زراعة التتن في القصيم	١٢٥
عود إلى الحديث عن الطريق	١٢٧
بيت الشاعر	١٢٩
المناجر	١٣٠
بيت أمير الشعراء	١٣٠
كيف يصنع البارود	١٣٧
وماذا عن بقية أهل البيت؟	١٤٠
مسجد الحي	١٤٠
وإمام المسجد	١٤٢
أرباب الصناعات في الحي	١٤٥
والمدارس في الحي	١٤٧
وما يتعلق بالطب	١٤٨
سرح الغنم	١٤٨
عالم آخر .	١٥٢
وجوه المسافرين	١٥٦
والحواشيش أو الحشاحيش	١٥٨
ملابس الناس	١٥٩
الغزو والحرب	١٦٣
الفهرس	١٦٦